الله والانسان والكون المادى

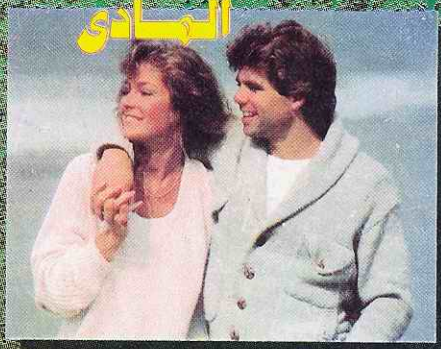
فى الإيمان الارثوذكسى
(ومقالات أخرى)



د. هانى ميا ميخائيل

الله والإنسان والكون المادي

في هذا الكتاب



ردود على تساؤلات يطرحها الفكر الإنساني سواء كان ملحدا أو مؤمنا، وهي غاية في الأهمية، لتقاوم كل انحراف يفرضه علينا العالم سواء بإباحيته أو تزمته.

(١) هل المادة (وكل ما يتعلق بها) نجسة أو شريرة، كما علم فلاسفة اليونان؟

(٢) هل الحاجة الى (الرغبة في) الأكل والجنس في الزواج والعلم والطموح، والتقدير والإمتلاك الضروري، هي «الشهوات الجسدية وأعمال الجسد» التي يعلمنا الكتاب المقدس أن نميتها بالنسك ونحاربها لننمو في حياتنا الروحية؟

(٣) هل يخلق الله نجاسة في المادة أو في الإنسان؟ خاصة وظائف الجسد؟

(٤) الخطية الأصلية، هل كانت ممارسة الجنس؟

(٥) هل تعلم الكنيسة حقا، كما يلومنا الملحدون، أن الله إله سادي، حكم على الإنسان بالموت لينتقم لكرامته المهانة بخطية الإنسان، ثم طلب من إبنه أن يموت كبديل مُهانوني لنا حتى يستطيع أن يرحمنا ويعفو عنا؟

(٦) هل ستفنى الخليقة المادية في المجيء الثاني أم ستتجدد في السماء الجديدة والأرض الجديدة؟

(٧) ما هي الخلافات الجوهرية بين الرؤية الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية لرسالة الخلاص؟ هل يمكن أن نتحد معًا؟

(٨) هل العفة ضرورية؟ لماذا؟ ما معنى التزمت والإباحية؟ هل العفة هي الامتناع؟

تقديم

كاتب هذه المقالات

- أراد أن يكون شاهداً أميناً للحق الإلهي «وتكونون لي شهوداً... إلى أقصى الأرض» (أعمال ١: ٨).
- وأراد أن يكشف عن الكنوز الخفية في التراث الثمين للكنيسة في عقائدها وطقوسها. ويبين أصالة هذا التراث الكنسي المستمد من الكتاب المقدس وأقوال الآباء، وذلك بروح الكاتب المتعلم «وكل كاتب متعلم في ملكوت السموات يشبه رجلاً رب بيت يخرج من كنزه جددا وعتقاء» (متى ١٣: ٥٢).
- وهو يكتب بروح خادم عاش حياته في الكنيسة وأحبها وعاصر المخدومين من الشباب وتساؤلاتهم ومشاكلهم، وشعر بالتحديات الشديدة التي تواجه إيمانهم وتحتاج إلى إجابات مستنيرة واضحة لتثبيت إيمانهم حتى يكونوا «مستعدين دائماً لمجاوبة كل من يسألهم عن سبب الرجاء الذي فيهم» (١ بطرس ٣: ١٥).
- وهو يكتب بروح من يريد أن يربح النفوس للمسيح وللكنيسة ولا يريد أن يخسر منهم أحداً بسبب الجهالة أو التعنت. ورابح النفوس يعلم قيمة النفس البشرية وكم هي ثمينة عند الله «صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء - صرت للكل كل شيء لاخلص على كل حال قدماً» (١ كورنثوس ٩: ٢٢).
- وأراد أن يصوغ خبرته من خلال اختبار مسيحي صادق في حياته الخاصة وفي حياته الأسرية وحياته الإيمانية، لكي يفيد به جيلا من الشباب شعر بإحتياجاته الملّحة للحماية من الضياع.
- وأراد أن يستفيد من تجربة شخصية ألّمت به وحاصرته، لعله يجعل منها مصدر بركة له وللآخرين أيضا من خلال مخدعه وخلوته الروحية.

فليبارك الرب رسالته لمجد اسمه القدوس.

القمص أنطونيوس أمين

فهرست

صفحة

+ مقدمة ٥

١- المقالة الأولى:

الله والإنسان والكون المادي في الإيمان الأرثوذكسي. ٩

+ أولاً: + الله والإنسان والكون في الهرطقات ١٤
+ الغنوسية والمانوية ١٥
+ معنى كلمة «جسد» في العهد الجديد ١٩
+ الأريوسية والنسطورية وأوطاخي ٢١

+ ثانياً: الله والإنسان والكون في الإيمان الأرثوذكسي ٢٣
تدبير وقصة الخلاص. ٢٤
-١- الخلق (الخلق ونظرية التطور) ٢٧
-٢- السقوط (الخطية الأصلية) ٣٥
-٣- الفداء والخلاص ٤٢
-٤- الكنيسة والأسرار المقدسة ٥٣

+ خاتمة ٦٤
+ المراجع ٦٥

صفحة

٢ - المقالة الثانية:

لماذا العفـــة ؟! ٧٠

+ إرادة الله أم إرادة الإنسان؟ ٧١
+ الأخلاق الاجتماعية: التزمت والإباحية. ٧٢
+ العفة قبل الزواج. ٧٧
+ تربية العفة. ٨١
+ العفة في الزواج. ٨٥
+ العفة في البتولية. ٩٣

٣ - المقالة الثالثة:

المعنى العملي للمحبة والمساواة بين أقانيم الثالوث القدوس في الكنيسة والأسرة. ١٠٥

٤ - المقالة الرابعة:

مصادر العقيدة الأرثوذكسية. ١١٧

رقم الايداع بدار الكتب ٣٧٧٤ /١٩٩٢

مكتب النسر للطباعة

٣٢ (أ) ميدان ابن الحكم

ص . ب ٨١ حلمية الزيتون - القاهرة

ت : ٢٤٢٠٩٧١

مقدمـة

تواجه الكنيسة الأرثوذكسية تحديات شديدة للإيمان، سواء من غير المؤمنين أو من الفكر الغربي. وهذا الكتاب هو محاولة لعرض بعض هذه التساؤلات، مع سرد موجز لتاريخ وأسباب ظهورها. وقد حاولت قدر إستطاعتي الإعتماد على الكتاب المقدس وأقوال الآباء الأولين (التقليد الكنسي - Tradition) والفكر الإنساني المعاصر. هذا أقدمه لأبنائي ومدرسي مدارس الأحد وإجتماعات الشباب في مصر والمهجر.

وهذه بعض التساؤلات التي يجيب عليها ويناقشها هذا البحث:

[١] **النظرة إلى المادة والجسد والحاجات الإنسـانية** (Human needs) ، خاصة البيولوچية والنفسية والفكرية، على أنها أمور فانية يجب التقليل من شأنها - إن لم يكن احتقارها ومحاربتها - باسم النسك والروحانية! هل هذه هى الرسالة الأرثوذكسية للعالم؟

[٢] «**أعمال الجسـد**» (غلاطية ٥) و «شهوات الجسد»: هل هى الأكل والجنس في الزواج، والرغبة في العلم والطموح والترقي، والجهد في كسب الرزق، والرياضة والفن؟ أم أن هذه الرغبات هى في تدبير الله «شهية» مقدسة؟ هل البتولية أعظم من الزواج؟ إن كان الحال هكذا فلماذا خلق الله الجنس بنفسه، وهل يخلق الله الإنسان في درجة أقل من «الاختيار

الأول»

The first best choice ؟

[٣] **المـــرأة :** هل هى «مسيحي من الدرجة الثانية»، أم أن هذه الصورة ترجع إلى تفسير الكتاب لصالح الرجل!؟ هل يسود الرجل والمرأة

هل هناك من نجاسة في المرأة تمنعها من الإقتراب من أعمال الروح القدس؟ ماذا قال الرسل الأطهار عن هذا السؤال في الدسقولية؟

[٤] **الخَلْـــق :** هل قصة الخلق (تك ١- ٣) حرفية علمية؟ أم حقيقية رمزية؟ ماذا قال الآباء؟ هل مرت بالكون مرحلة تاريخية لم يكن فيها «موت» للحيوان والإنسان؟ هل «الحالة الفردوسية» الكاملة حالة تاريخية كانت في الماضي وسقط منها الإنسان، أم هى إشتياق لحالة الملكوت في المستقبل؟ علَّم أكليمنضس السكندري أن ممارسة الجنس كانت هى الخطية الأصلية! وعلَّم أغسطينوس أن الإنسان كان سيتناسل بدون جماعٍ جنسي في الفردوس! هل قبلت الكنيسة هذه الأفكار؟

[٥] **سقوط الإنسان والعقوبة :** كيف شرح الآباء معنى الخطية الأصلية؟ عندما نقرأ أن الله قد قال للإنسان «يوم تأكل من شجرة معرفة الخير والشر، موتاً تموت»، فهل يعني هذا أن الله هو الذي يميت الخاطئ ويقتصُّ منه؟ هل حقاً خطية الإنسان تشكل إهانة غير محدودة للإله الغير محدود، وتحتاج لقصاص غير محدود، حتى يستطيع الله أن يصفح عن

الخاطئ؟ أم أن الخطية إساءة للإنسان وحده؟ هل خلق الله الموت وجهنم؟ كيف شرح الآباء مشكلة الشر؟

[٦] **الفـداء والكفارة :** يقول الملحدون، إننا نبشر بإله قاس يعاني من «السادية اللاهوتية»، لأنه كان يتلذذ بإسالة الدماء وحرق الذبائح، بل كان يشتمها كرائحة عطرة ليرضى عن الخاطئ المسكين!!

ليس هذا فقط، بل وأنه كان مضطراً أن يقتل إبنه لينال مراده ويرتاح باله عندما يقتص لعدالته، وعندئذ، يقبل أن يغفر خطايانا!

أليس هذا هو معنى الكفارة كما تعلمه الكنيسة الغربية منذ العصور الوسطى؟ فهل علمت الكنيسة الأرثوذكسية الأولى هكذا؟ ماذا تعني كلمة «دم المسيح» وكلمة «لعنة»؟

[٧] **المادة سوف تتجلى أيضاً مع تجلي الإنسان...** وتصبح سماءاً جديدة وأرضاً جديدة. هكذا علم المتنيح الأنبا بيمين مُعلقاً على (رو ٨: ١٩ - ٢٣ و رؤ ٢١: ١)، فكما أن ثياب المسيح قد تجلّت معه على جبل طابور فالكون المادي يبدو وكأنه لن يفنى إلا ليتجدد كما سيحدث لأجسادنا في القيامة بعد الموت! فكيف يُفني الرب الخليقة المادية التي تئن منتظرة الخلاص من عبودية الفساد، بعد أن حلَّ ويحلّ فيها كل ملء اللاهوت جسدياً، عندما يقدسها الروح القدس على المذبح وتصبح جسد الرب ودمه بالحقيقة؟!!

[٨] فسرت **الكنيسة الشرقية** (Greek Fathers)، الرسالة المسيحية، على أساس ومحور «**الحب والنعمة**». أما **الكنيسة الغربية** (Latin fathers)، فقد فسرت الرسالة نفسها على أساس ومحور «**القانون والعقوبة**»، بصورة سادية. حتى أنها علَّمت بعقيدة صكوك الغفران، وزوائد القديسين، والمطهر، وحرقت المخالفين، كإمتداد لقانونية العلاقة بين الله والإنسان! لذلك، إنشقت عنها الكنائس والجماعات التي عُرفت باسم البروتستانتية لرفضها هذا التطرف. إلا أن هذه الكنائس والجماعات البروتستانتية رفضت قداسة المادة (برفضها الأسرار المقدسة)، ورفضت أي دور للبشر في توصيل بركات الخلاص والنعمة لنا (الكهنوت، وشفاعة القديسين). فكيف يا ترى سنلتقي ونصبح واحداً كما أن الثالوث القدوس هو واحد؟!

أرجو من القارئ العفو والمعذرة إن كنت قد أخطأت، بأي صورة في هذا البحث، فليس من إنسان معصوم من الخطأ.

لذلك أرجو مراسلتي بالتعليقات والتصحيحات.. لنصنع حواراً.

DR. HANY MINA MIKHAIL

الله والإنسان والكون المادي
في
الإيمان الأرثوذكسي والهرطقات

الله والإنسان والكون المادي
في الإيمان الأرثوذكسي والهرطقات

المسيحي هو من يحيا ناموس المحبة لله والقريب والكون، فعلاً بقوة الروح القدس وليس فكراً فحسب. واللاهوتي هو من يُصلي (أي يعي وجود الله الدائم في حياته)، لا من يتكلم ولا من يكتب.

إن غاية إيماننا هو خلاص النفوس (١ بط ١: ٩). والخلاص وإن كانت أولى خطواته الخروج من سجن الموت، الذي دخله الإنسان بإرادته وحده وكامل حريته، إلا أن خروج السجين من سجنه لا يكفي، ولا يمثل رسالة الإنجيل المفرحة التي صلى من أجلها الرب: «ليكونوا واحداً فينا كما أني أنا وأنت واحد» (يو ١٧: ٢١- ٢٢) مخاطباً الآب السماوي. كثيراً ما قد يُفْهَم أن رسالة الإنجيل هى الخلاص من الخطية والموت (عقوبتها) فقط. وقد ترسب هذا الفكر الناقص من كثرة التركيز على الخطية وآثارها. إلا أن من يقرأ كتابات الآباء الأوائل - خاصةِ أثناسيوس الرسولي - يكتشف **أن خلاصنا ليس في الخروج من سجن الموت فقط، بل في الدخول إلى بنوة الآب والاتحاد معه في ملكوته أو حضنه.** وقصة الإبن الضال خير مثال. فخلاص الإبن الضال كان في رجوعه إلى حضن أبيه ومشاركة مجد أبيه، لا في التوبة والخروج من كورة الخنازير

فقط. لذلك تؤكد الكنيسة الأرثوذكسية على أن التوبة والإيمان والمعمودية هم **بداية** طريق الخلاص الذي **يكمل** بقيامة الإنسان في كماله ومجده حين يجمع الإبن في اعلان مجيئه الثاني الخليقة كلها ويدخلها إلى حضن الآب. حينئذ فقط تكتمل سعادة الإنسان، حين يرتوي عطشه إلى الكمال والسعادة المطلقة، في قمة الحب وانسجام علاقاته بنفسه والآخرين والله والكون المادي الذي سيتجلى في «السماء الجديدة والأرض الجديدة» (رؤيا ٢١: ١).

لذلك قال إيريناوس (أسقف ليون بفرنسا في القرن الثاني) أشهر العبارات اللاهوتية والتي رددها البابا أثناسيوس الرسولي، لأنها خلاصة إيماننا كله بكثافته وعمقه:

«**لقد صار الله إنساناً.. لكي يصير الإنسان إلهاً**».. وهذا يتم بالنعمة بالتبني، لا بالطبيعة الكاملة قطعاً. فالملك العظيم.. أرسل إبنه الوحيد ليخرجنا من سجن الموت، ويعيد لنا النعمة بالروح القدس (التي فقدها الإنسان حين أراد التأله بعيداً عن الله)، كما يعلم أثناسيوس الرسولي في كتاب «تجسد الكلمة»، تلك النعمة، هي التي تعطينا «سلطاناً أن نصير أبناء الله» (يو ١: ١٢). بل ويعلمنا الكتاب أيضاً أننا نصبح «شركاء الطبيعة الإلهية» (٢بط ١: ٤)، حيث أنه «متى أُظْهر سنكون مثله» (١يو ٣: ٢) وسنكون «مشابهين صورة إبنه» (رو ٨: ٢٩). والمشابهة هنا ليست شكلية، بل نتغير كيانياً من بشر ضعفاء إلى متمثلين بالله، إذ دعانا أيضاً آلهة (يو ١٠: ٣٥)!! وفي هذا كل العجب، حيث يصعب فهم هذه الآيات من عمق جمالها ووعودها التي لا يمكن أن تخطر على قلب بشر (١كو ٢:

٩)، إذ سيكون ذلك دون أن نفقد طبيعتنا البشرية، بل بالحري سيكون ذلك بتجلي طبيعتنا إلى كمالها وملئها.

لذلك لا يستطيع أحد أن يقبل ويؤمن بهذا «**التأله بالنعمة**» - كما سماه الآباء - إلا إذا آمن حقاً بالحدث التاريخي - والإسكاتولوچي - الذي جعله ممكناً، وهو «**التجسد**». فإن كان لا يستطيع أحد أن يقول أن يسوع المسيح هو الرب إلا بالروح القدس، كذلك لا يستطيع أحد أن يشهد أن الإنسان في كماله الأبدي هو شريك الطبيعة الإلهية بالنعمة على مثال إبن الله بالطبيعة، إلا بالروح القدس. أي أن نعمة الشركة في الطبيعة الإلهية، بالتبني بالنعمة، لن تفارقنا إلى الأبد ولا حتى لحظة واحدة ولا طرفة عين!

وهذا سبب وأساس الإيمان الأرثوذكسي بطبيعة السيد المسيح الواحدة من اتحاد اللاهوت والناسوت (بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير). لأن عطش الإنسان إلى السعادة والكمال المطلق (والذي هو سبب نشوء كل الديانات والفلسفات **سعياً من الإنسان** نحو الله)، لا يرتوي إلا بتمام هذا الوعد، الذي أعلنه الله لنا. لذلك فالمسيحية تختلف جذرياً عن كل الديانات في أنها ليست منهجاً أو فكراً بل هي **إعلان وحدة الله مع الخليقة**، وحدة وزواج أبدي تم كباكورة ونموذج في كيان الإبن المتجسد، ثم يتم فينا بالروح القدس، بالإيمان والأسرار التي تطبع فينا «سر التقوى» هذا، لنصير «مشابهين صورة إبنه» (رو ٨: ٢٩).

أولاً : الله والإنسان والكون (المادة) في الهرطقات (Heresies) :

إن كل محبي الحكمة (أي الفلاسفة كما تعني الكلمة باليونانية)، وكذلك كل من كتبوا في اللاهوت عبر التاريخ، كانوا في الحقيقة ينظرون للإنسان في ذهول إذ يتساءلون عن ماهية الله وكنهه، والهدف من الوجود المادي الذي يبدو في ظاهره أن مآله الفناء والزوال.

لذلك، فدراسة اللاهوت أو الفلسفة عموماً، هى دراسة: الله والإنسان والكون، وعلاقتهم الثلاثية. وكل هرطقة مرت بها الكنيسة هى في جوهرها تحريف لإعلان الله لنا عن هذه العلاقة، حيث يكون مقتضاها عدم إمكانية اتحاد الله والخليقة ومن ثم فقدان عقيدة الخلاص برمتها! وهذه النقطة هامة جداً لكي نميز بين: الاختلاف في الرأي في التفسير (وهذا يظهر في بعض كتابات آباء القرون الأولى)، وبين ما اعتبرته الكنيسة هرطقة لشدة خطورته.

وغالباً ما تبدأ الهرطقات بفهم مُشوَّه لطبيعة المادة وقصد الله منها، فينظر إليها على أنها شريرة أو نجسة! والنتيجة الحتمية لهذا الفكر أن الإنسان (حيث أنه يحمل جسداً مادياً) يكون هو الآخر شريراً ونجساً بالطبيعة. فإن كان الحال هكذا، فكيف يمكن أن يتجسد الله في هذه النجاسة والشر وهو القدوس المنزه عن هذه الخليقة التي لا يمكن أن يتعامل معها؟!! في هذه الفقرة تلخص جذور كل الهرطقات التي حارب ضدها الرسل والكنيسة، ومازالت! وأشهر هذه الهرطقات: الغنوسية GNOSTI-

CISM ، والمانويه، نسبة إلى ماني الفارسي الأصل (القرن الثاني) MANICHAEISM والأريوسية ARIANISM، والنسطورية NESTORIANISM ، والأوطاخية نسبة إلى EUTYCHES.

الغنوسية والمانوية :

ولفهم هذه الهرطقات، يجب ادراك **البيئة الفكرية** في الامبراطورية الرومانية، والتي أدت إلى ظهور هذه الهرطقات كمحاولات لتطبيع الفكر المسيحي بالصبغة اليونانية.

بعد أن يأس فلاسفة اليونان من إصلاح الإنسان، وخاصة بعد ضعف إمبراطوريتهم – كما يشرح لنا التاريخ – (أنظر الدسقولية تقديم د. وليم سليمان قلاده عن الغنوسية) أخذوا يعلّمون، كما قال أفلاطون وغيره، بأن **مادة الكون نفسها شريرة** وأن الروح هى حقيقة حبيسة في سجن مادي إسمه الجسد، وتنتظر خلاصها بأن تنطلق منه لعالم الأرواح وتتركه للهلاك! أما خلاصها الجزئي فيكون بالمعرفة GNOSIS والجهاد الإنساني لا بالإيمان.

أما MANI في القرن الثاني، فعلّم أن **خالق الكون المادي هو إله شرير غير الإله الخير** الذي خلق الوجود الروحي. **والروح أيضاً حبيسة المادة ويجب أن تصارعها بالنسك** الشديد الصارم. ولا يمكن أن تنمو النفس روحياً إلا بهذا النسك، الذي يحارب كل رغبات الإنسان المادية، إذ أنها كلها رغبات شريرة تحدره إلى الهاوية.

لذلك حرّم الغنوسيون والمانويون بعض المأكولات، مثل اللحم والخمر على أنهما نجسان بالطبيعة. وحرموا الزواج، إذ رأوا أن الرغبة الجنسية هى أدنى ما في الإنسان وأن الشر ينتقل من الآباء إلى أبنائهم من خلال العمل الجنسي!! وقد عاشر أغسطينوس هؤلاء المانويين عدة سنوات قبل توبته. ويقال في التاريخ أنه قد تأثر بهم؛ ولعل هذا أحد أسباب أنه كان أول من علَّم بوراثة الخطية على خلاف ما علم به أثناسيوس الرسولي، وبقية آباء القرون الأربعة الأولى. (أنظر كتاب: كيف نفهم اليوم قصة آدم وحواء – لكوستي بندلي – منشورات النور – لبنان)

(وكتاب: The Early Church by Henry Chadwick., Penguin Books p. 227-228)
(وكتاب:-Reason & Faith - by Foster & Marston, Monarch Publica-tion, p. 231)

وقد إمتدت آثار هذه الإنحرافات حتى أنها قد أثرت على النسك المسيحي كما كتب المتنيح الأنبا بيمين (المسيحية والجسد ص ٦٦) (وكما في كتاب: The Early Church)(وكتاب: - The Sacrament of Love by P. Evdokimov, SVS Press, N.Y. Page 60) ولعل هذا ما جعل الكثير ممن كتبوا عن الجنس والمرأة في القرون الأولى، يعبرّون عن عدم ارتياحهم وتجريمهم لهذا الجانب في الإنسان! لقد علم اكلمنضس السكندري أن الخطية الجدية كانت في الحقيقة أن آدم وحواء قد مارسا الجنس قبل أن يسمح الله لهما!! أما أغسطينوس فعلم بأن الإنسان في الفردوس كان سيتناسل بدون جماع جنسي! إذ أن هذا لا يمكن أن يتفق مع الطبيعة الفردوسية للإنسان! (كتاب سر الحب – بول إفدوكيموف اللاهوتي الروسي

– Sacrament of Love) . وتقول أيضاً Elizabeth Clârk في كتابها الآبائي الممتاز Women in the Early Church (The liturgical press- Minnesota. P. 15-20) أن المرأة قد ظُلِمَت كثيراً في القرون الأولى المسيحية لأسباب اجتماعية قد أثرت على **تفسير رسالة الكتاب المقدس لصالح الرجل!**

ولكن الكنيسة في تيار التعليم العام لم تتبنى هذه الأفكار التي تحط من كيان الإنسان، الذي قال عنه الكتاب أنه «حسن جداً» (تك ١: ٣١). لذلك فقد حرمت في القرن الرابع كل من علَّم بنجاسة المادة والجسد والزواج وأكل اللحم وشرب الخمر، وذلك في مجمع GANGRA غنغرة (القانون ١، ٢ و ٤). ليس هذا فقط ولكن الباب الـ ٣٣ من دسقولية الرسل ملئ بالتعاليم التي تحرم كل من علَّم بنجاسة الجسد وإفرازاته، أو بنجاسة الزواج والعلاقة الجنسية وإفرازاتها في الزواج. وقد قدم لنا د. وليم سليمان قلاده هذا الكتاب، مع دراسة لاهوتية لنقاء تعاليم الآباء الرسل. وقد أشاد قداسة البابا شنوده الثالث بهذا البحث في مجلة الكرازة (٧٩/٧/١٢).

وتُعلم الدسقولية المرأة الطامث والنافس والزوجين بعد المعاشرة، بأن أجسادهم نقية وطاهرة ولا تحتاج للحميم لكي تصبح طاهرة للصلاة أو الاقتراب من أعمال الروح القدس، وأن من يعتبر نفسه نجساً لهذه الأسباب يحكم على نفسه بفراق الروح القدس منه!!! وقد أكد أثناسيوس الرسولي هذا التعليم في رسالته إلى الراهب آمون (مجلد ٤ – سلسلة آباء نيقيه – المجموعة الثانية ص ٥٥٦). أما قانون منع المرأة الطامث والنافس من دخول الكنيسة، فقد

وضعه الأنبا كيرلس الثالث الشهير بإبن لقلق في القرن ١٣ فقط. وكان البابا ديونيسيوس السكندري (القرن ٣) قد إرتأى هذا الرأي أيضاً من قبله. إلا أن هذه الآراء حقيقة تعتبر شخصية حيث أن المجامع المسكونية وتعاليم الرسل لم تقنن هكذا. ويعلق المتنيح الأنبا بيمين على هذا القانون في كتاب المسيحية والجسد ص ٣١؛ وأيضاً يستشهد بهذا التعليق كتاب الجنس والزواج، الذي قدم له نيافة الأنبا موسى أسقف الشباب، يعلق ويقول أن الكنيسة قد وضعت هذا القانون «كراحة إجبارية للمرأة» حيث أنها تكون عادة متعبة ولا تريد الكنيسة أن تثقل عليها وتتركها لضميرها فقط: هل تذهب للكنيسة أم تستريح بالمنزل في هذه الأوقات. وهو يؤكد مثل الدسقولية ومثل أثناسيوس الرسولي، أنه ليس في جسد الإنسان وإفرازاته أي نجاسة إطلاقاً. **ولكن النجاسة تحل بالخطية وحدها حتى ولو كانت بالفكر فقط.**

أما إن أراد البعض تفسير وضع هذا القانون على أنه تطبيقٌ لشريعة ناموس موسى، التي في سفر التثنية، فترد عليهم الدسقولية في الباب ٣٣ بمنتهى الصراحة والوضوح: أن الرب قد أبطل رباطات الناموس (الموسوي) بالكمال.. وما قد كمله وثبته فهو «الناموس الأول.. الناموس الطبيعي». ذلك الذي قد عاش به الآباء الأولون قبل موسى، ثم أعطاه لموسى بصورة الوصايا العشر.

تلك الرباطات: «**ربطهم بهذا: بالذبيحة والإمتناع والتطهير، أما أنتم أيها المؤمنون... فقد حلكم من الرباطات وجعلكم أحراراً من العبودية... وبطّلها بالكمال والناموس ثبته**»، «وليس الذي

رفعه عنا ناموساً بل رباطات».

وفي النسخة السريانية أيضاً: «والذين لا يطيعونه ليخفف عنهم ويخلصهم من ربط التثنية، **لا يطيعون الله**.. فلا تبحثوا عن أي شئ آخر لأن **التثنية قد أبطلت**، وقد ثبت الناموس... لأنك عندما تحفظ التثنية، فإنك تشارك في اللعنة التي توجهها لمخلصنا (لأنه ملعون من عُلِّق على خشبة)، **وأيضاً فإنك ترث اللعنة**».

فالرسل الأطهار، قد حاربوا بشدة الغنوسية والتهود على أنهما كليهما هرطقات.

معنى كلمة «جسد» في العهد الجديد:

يقول المطران چورج خضر الأرثوذكسي (لبنان) أن ترجمة كلمة (Sarks = Flesh) وكلمة (Soma = body) إلى كلمة واحدة بالعربية وهي: «جسد»، قد أنشأ **مشكلة كبيرة في فهم معنى الجسد**. فكلمة Sarks تعني الإنسان بكامله (روح وجسم) بعيداً عن الله، في حالته الفاسدةبدون نعمة الله. وفي هذه الحالة تكون كل أعماله وأفكاره أعمالاً «جسدية» – of the flesh . أما Soma فتعني الجسم المادي الخيِّر، وأحيانا الإنسان كله، كخليقة الله الطاهرة التي هي هيكل للروح القدس، بكل احتياجاتها ورغباتها المادية والنفسية والروحية على السواء. وقد ردد المتنيح الأنبا بيمين هذا الكلام نفسه في كتاب المسيحية والجسد. وأيضاً پول افدوكيموف اللاهوتي الأرثوذكسي و Romanidis الأرثوذكسي في مقالته الهامة: Original Sin - S.V.S. - New York 1956 .

لذلك وكما علم بولس الرسول في غلاطيه ٥، **فإن «أعمال الجسد» ليست هى احتياجات الجسد المادي من أكل وزواج ورغبة في الترقي والطموح والعمل والعلم وكسب الدخل والامتلاك الضروري إنما هى إنحرافات وشر الإنسان ككل، بعيداً عن الله ووصية الكتاب.** إن لم نعي هذا الكلام تمام الوعي، فنحن عرضة لتحريف التفسير بخصوص أنشطة الإنسان كلها، وتتحول تباعاً كل حياتنا إلى سعي وراء «شهوات الجسد والعالم»، ليس هذا هو النسك المسيحي، بل **هذا الانحراف هو النسك الغنوسي المانوي بعينه.**

إن تحريم الهرطقات لا يقضي عليها لأنها نمط فكري ونظام للحياة system، تقيم على أساسه كل أفكار ورغبات وأعمال الحياة اليومية. فإن قلنا أن الرغبة في الأكل شهوة (أي رغبة شريرة = Lust) والرغبة الجنسية في الزواج شهوة، والطموح شهوة... الخ، فماذا يتبقى لنا من الحياة إلا العبادة فقط؟! إن هذا هو الإنحراف الذي أصاب النسك المسيحي كما قال المتنيح الأنبا بيمين. ولعل هذا ما جعل أحد أبنائنا يعلّق: «يبدو لي أن كل ما تحاولون اقناعنا به في مدارس الأحد، هو أن في هذه الحياة لا يخلص أحد إن لم يدخل الدير!»

في اللغة العربية حروف العلة (الواو والياء والألف) كلها تشكل حرفاً واحداً ويمكن إستبدالها. لذلك **تستعمل كلمة «شهوة» بمعنى «شهية»! ولكن في هذا الاستعمال خطأ كبير وخطورة شديدة جداً.** وذلك على شبه الالتباس الحادث من ترجمة كلمتي Sarks & Soma إلى كلمة واحدة تماماً. فكلمة شهوة ترجمتها: Lust ، أي رغبة شريرة. **وكلمة**

شهية ترجمتها: Appetite **أي رغبة جيدة**، ومن هنا يبدو لنا أن استعمال كلمة «الشهوة الجنسية» للتعبير عن هذه الرغبة في الزواج، تحول تعليمنا إلى هرطقة غنوسية مانوية مباشرة، وتخلق مركبات نفسية غاية في الخطورة. ولعل هذا هو السبب الرئيسي في أن الجنس في المجتمعات الشرقية عموماً، هو سبب جذري في الكثير من المشاكل الزوجية والنفسية. ونطلب من الله ألا يكون هذا هو الحال في شعبنا؛ وإن كانت للأنبا بيمين عظة مسجلة للشباب يؤكد فيها فزع حديثات الزواج من أزواجهن لشعورهن بنجاسة هذه العلاقة وكل ما يرتبط بها كما تعلمن منذ الصغر، مع الأسف الشديد.

الأريوسية والنسطورية وأوطاخي:

يسهل جداً الآن أن نفهم لماذا فكر هؤلاء الهراطقة، أن طبيعتي اللاهوت والناسوت في السيد المسيح كان يستحيل ليس فقط اتحادهم بل وحتى لقاءهم معاً.

فآريوس: إذ قرأ «إن أبي أعظم مني»، وكان قد نشأ في الفكر اليوناني الذي يحتقر المادة والجسد، كان لا يستطيع قبول أن يتجسد الله! لذلك علم بأن الابن مخلوق، ولكنه أعظم الخلائق، محرفاً كلمة «بكر كل خليقة» في التفسير.

أما أوطاخي: فإذ أراد الدفاع عن لاهوت المسيح (غالباً للرد على الفكر النسطوري)، علّم بأن الجسد المادي (الناسوت) لابد وأنه قد إبتلع في اللاهوت تماماً، كما تذوب نقطة الخمر في البحر. فهو إذ أراد أن يبقى

إعترافه باللاهوت، ولم يستطع إنكار تاريخية شخص يسوع الناصري كإنسان، اضطر لعدم إعترافه بحقيقة بقاء ناسوت الرب كناسوت حقيقي في إتحاد مع اللاهوت بدون إمتزاج أو تغيير.

وأما نسطور: فلم يتصور إمكانية اتحاد اللاهوت بالناسوت، بل علَّم بأن اللاهوت كان فقط مصاحباً للناسوت! وأن السيدة العذراء قد ولدت الإنسان يسوع فقط.

المشكلة المشتركة، كما نرى، هى عدم إقتناع أي منهم، بأن المادة والجسد هما في الحقيقة كيان وخليقة طاهرة قد رأى الله صلاحها - من جهة الطبيعة - لكي يحل فيها، ويردها إلى الحياة في حضن الآب الذي لذته في بني البشر.

ومن حيث طبيعة السيد المسيح، فقد علم الغنوسيون أيضاً أن جسده كان جسداً أثيرياً (طيف خيال)، ولذلك فالذي صلب لم يكن الرب نفسه بل «شبه له» ومن الملاحظ - لمن هو دقيق الملاحظة - أن فكر آريوس هو عقيدة شهود يهوه الحالية. وهناك في أيامنا الحالية أيضاً من يؤمن بأن الرب لم يصلب بل صلب «شبيه له». وأيضاً يقال أن فكر نسطوريوس لايزال حيّا في كل تعليم يشق ويفصل حياة الإنسان إلى ما هو مقدس(sacred) بعيداً ومتعاليا على ما هو علماني، أي ما يهتم بالحاجات الزمنية للإنسان (secular)، فالإزدواجيات والثنائيات الغنوسية (Gnostic Dualities) التي تقسم الإنسان إلى روح وعقل ضد الجسد، أو فكر مضاد للمادة (ومن ثم تجعل حياة التأمل أعظم من حياة العمل)، هذه كلها أفكار غير مسيحية. لأن الحرب في الإنسان المسيحي ليست بين مكوناته الكيانية (الجسم

والروح)، بل بين الخير والشر. فالمسيحي وحدة سيكوسوماتيكية (psychosomatic) أي نفسية جسدية لا يمكن تجزئتها، وستظل هكذا في ملكوت الله عندما تقوم الأجساد لترث المجد مع الأرواح للأبد. فالجسد (soma) والروح والفكر والمادة والتأمل والعمل.. كلها تنسجم في وحدة واحدة يسكنها ويقودها الروح القدس نحو هدف واحد بدون تضاد إطلاقاً، ذلك هو «شبه ومثال» السيد المسيح.

ثانياً: الله والإنسان والكون (المادة) في الإيمان الأرثوذكسي:

بما أن النور يسطع عادة بشدة إذا قورن بالظلمة، والجمال يتأكد بمقارنته مع القبح، لذلك كتبت أولاً عن الانحرافات الهرطوقية، التي وصل إليها الإنسان عندما أراد أن يفسر الكون ونفسه وعلاقة الله به، من خلال الفكر البشري وحده بدون الإعلان الإلهي. ومما هو واضح وكما ذكرت، أن **خطورة الهرطقات** ليست في أنها انحرافات فكرية يهتم بها دارسو اللاهوت والفلسفة بل هى **دعوة لتحطيم خلاصنا** كله والغاء ومحو الاعلان الإلهي كله عن طريق تحويل شخص الرب إلى مصلح اجتماعي أو نبي في سلسلة أنبياء البشرية، **وتشويه طبيعة الكون والإنسان وتحقير كل أنشطة الإنسان** بداية من وظائف أعضاء الجسد إلى أكله وشربه وزواجه وعمله وعلمه وطموحه وكل صورة الله التي فيه، وتمزيقه إلى ثنائيات الغنوسية حيث يصبح فيه ما هو مقدس وما هو نجس وشرير وغير مقدس في آن واحد!! هذه ليست رسالة الخلاص.

تدبير وقصة الخلاص : (SALVATION ECONOMY)

إن كل تعليم أورثوذكسي للعقيدة المسيحية يبدأ بدراسة **الخلق** لكي يؤكد لنا طبيعة الخليقة وطبيعة الإنسان الحسنة جداً (تك ١ : ٣١) . ثم يتبع هذا دراسة **سقوط الإنسان** لفهم أسباب معاناته. وبعد ذلك الحديث عن **الفداء والخلاص**، وذلك يستلزم تأكيد أرثوذكسية إيماننا عن طبيعة السيد المسيح (Christological dogma)، ولا ينتهي الحديث بدون تأكيد إيماننا بالروح القدس ودوره في **الخليقة والكنيسة** عاملاً فينا بالأسرار حتى القيامة وحياة الدهر الآتي. ولذلك وضعت الكنيسة **قانون الإيمان** الذي يرسخ هذه المفاهيم.

(١) الخلـق :

يحكى لنا سفر التكوين في اصحاحاته الثلاثة الأولى قصة شعرية حقيقية ولكن (Metaphorical) في أسلوب رمزي، كما شرح وأكد الكثير من الآباء الأولين أمثال أوريجانس ويوحنا ذهبي الفم وباسيليوس وغيرهم (Foster & Marston Reason & Faith by). يحكى لنا أن الله هو الخالق الوحيد، وعلة وجود الكون كله والإنسان، بدون شريك. ويؤكد لنا في نهاية كل فقرة من فقرات الخليقة (المرموز لها بالأيام الستة) أن الخليقة المادية كلها حسنة ومُرْضية. وكيف لا تكون كذلك وهي من عمل «قوة نقية» كما علم أثناسيوس الرسولي؟ وأما الإنسان فقد خلقه الله وبصورة خاصة، حاملاً «نعمة» خاصة جعلته حسناً جداً. ويعلّم أثناسيوس الرسولي في كتاب تجسد الكلمة، أن هذه **النعمة قد أعطيت للإنسان لكي تحميه وتحفظه من**

الفساد أي التحلل والفناء الجسمي والموت الروحي أيضاً بالبُعد عن الله للأبد. وقد علم أن الإنسان لم يُخْلَق خالداً (من الناحية الجسمية)، ولكنه خلق قابلاً للموت بالطبيعة (Mortal by nature-On the Incarnation P. 30).

ولكنه إن حافظ على هذه النعمة، بالتأمل الدائم في الله كان يمكنه «عدم الفساد» أي الحياة للأبد. وقد علم أيضاً كل من إيريناوس ويوستينوس الشهيد بأن الخلود لم يكن من طبيعة الخلائق في ذاتها إلا لو أراد الله، (Faith of the Early Fathers - Vol. 1, P. 58 and 89). بالرغم من هذا الوضع القابل للموت الذي جُبل عليه الإنسان والخليقة الحيوانية ضمناً إلا أن الخليقة كانت في نظر الله ولازالت في أصالتها جيدة. والعالم لم يحدث له تغيير في طبيعته بعد السقوط، وإنما فقدت منه هذه النعمة فأصبح الإنسان مائتاً لا محالة، كما سنرى، والخليقة المادية أيضاً **فقدت منه ومنها «النعمة»**. **وهذا ما تعنيه كلمة «لعنة»** في «ملعونة الأرض بسببك» (تك ٣ : ١٧). لذلك فاللعنة ليست من عمل أو إرادة الله، بل هي نتيجة تلقائية طبيعية للخطية ولرفض الإنسان لنعمة الله «صانع الخيرات».

ومن الدروس والأهداف الهامة في قصة الخليقة **نظرة الله وتصميمه الرائع في خلق الجنس** في الإنسان. حيث أنه هو الذي «خلقه ذكراً وانثى» (تك ١ : ٢٧) وخلق له كل شئ للتمتع «من جميع شجر الجنة تأكل» (تك ٢ : ١٦). أي أن خير الطبيعة كله هو لسعادة الإنسان، وكل احتياجاته الطبيعية هي خيره ومن صنع الخالق المحب «شاعر* الكون» كما سماه

---

* كلمة «شاعر» في اللغة اليونانية واللاتينية تعني «مُبْدِع أو «صانع»، ومنها كلمة "poet" بالإنجليزي التي تعني «شاعر».

فرانسوا كليمان الفرنسي. ويبدو سفر التكوين لدارسي هذه الاصحاحات غنياً بالرموز التي تكاد تملأ كل كلمة. فآدم تعنى «تربة الأرض» لأننا من عناصر المادة، وحواء تعني أم كل حي (حياء = حواء)، والضلع يرمز لمساواة الرجل والمرأة، وليس كما في أساطير حضارات امريكا اللاتينية أن المرأة من أخمص قدم الرجل! **أما سبب خلق الجنس** فليس هو التناسل، كما علَّم الكثيرون، ولكنه «الشركة والحب» كما يفهم من أنها خلقت لكي «تكون معيناً نظيره» (تك ٢: ١٨). وقد علم يوحنا ذهبي الفم هكذا، وردد المتنيح الأنبا بيمين نفس التعليم: النسل ليس هدف الزواج ولكنه ثمرة الحب والشركة. ولذلك لا تُطلِّق الكنيسة المرأة العاقر ولا الرجل الذي لا ينجب. **والزواج أيضاً هو نظام ناموس الحياة الأساسي والأول.** لذلك فمن يعلم بأن البتولية أرفع شأناً من الزواج يعلم بأن الله قد خلق الإنسان في حالة أقل من أفضل الاختيارات الممكنة أي أنه خلق:

(in his second, and not the first best choice)، وهذا غير مقبول لاهوتيا ولا منطقيا.

إن البتولية حالة خاصة لا يجب إعلاؤها على الزواج. وحديث السيد المسيح مع الغني عن الكمال في ترك كل شئ واتباع الرب، لم يقصد منه التبتل بل عدم الاعتماد على أي شئ إلا الله وحده، وأن يبيع القلب من الداخل أي ارتباطات خارجة عن علاقته بالله أو معطلة له. وإلا قلنا أن المتزوجين هم ضعاف المؤمنين، كما كانوا يُسمَّون في القرن الرابع «أهل العالم» بالمقارنة بالرهبان أهل الدير والبرية حتى أُعتبِر «**أهل العالم مؤمنين من الدرجة الثانية**» (كتاب The Body & Society by Peter

Brown). أيضا تعليم التكوين وبركة الله للإنسان لكي يتناسل «اثمروا واكثروا واملأوا الأرض» (تك ١: ٢٨) جاء قبل قصة السقوط. وهذا يرد على رأي من قال أن الخطية الأصلية هى ممارسة الجنس. **فالعلاقة الجنسية لم تحدث كشر لابد منه بعد السقوط، بل سنَّها الله وصنع أعضاءها ووظائفها و «لها جمال أفضل» من بقية الأعضاء** كما علم بولس الرسول لتصحيح مفاهيم الأمم الذين كانوا يظنون أنها قبيحة!! (١ كو ١٢: ٢٣).

الخلق ونظرية التطور :

يقول لنا العلماء بناء على إستعمال طريقة "Carbon 14-dating" أن الحياة على هذا الكوكب عمرها حوالي ٢ – ٣ مليارات من السنين! وعمر كوكبنا نفسه حوالي ٤,٥ مليارات من السنين. أما الإنسان فهو حديث السن جداً ويبلغ عمره حوالي مليون سنة فقط! والإنسان الحديث (Homo Sapi-ens)، قد وجدت له عدة حفريات تؤكد أنه يبلغ من العمر حوالي مائة ألف سنة. وهذه كلها أرقام صغيرة إذا قورنت بعمر الكون والذي يقدر بحوالي ١٥ ملياراً من السنين (١٠– ١٠٠ مليار).

أما من يؤمنون بحرفية (تك ١– ٣) فالكون بالنسبة لهم (وهم يسمَّون في الغرب Creationists)، كله قد خُلق منذ أقل من ثمانية آلاف سنة في مدة ١٤٤ ساعة فقط (ستة أيام)!! وهم يرفضون المعطيات العلمية، مُدَّعين أن العلماء يهدفون إلى محاربة الإيمان، رغم أن كثيراً من العلماء يؤمنون بوجود الخالق ولكنهم أيضاً يحترمون صحة الإكتشاف العلمي. فهل هناك

من تعارض بين الكتاب المقدس والعلم! خاصة فيما يختص بنشوء الحياة وظهور الوعي والإدراك، بظهور الإنسان؟

المشكلة ليست بين الكتاب المقدس والعلم، ولا بين الإيمان والفكر التحليلي المستنير. يقول فرانسس بيكون، إن الله قد أعطانا كتابين لا يشوبهما أي خطأ:

الأول : «**الكون المادي**»، وتفسيره «**العلم**» Science.

والثاني: «**الكتاب المقدس**»، وتفسيره «**العقيدة اللاهوتية**» Theology.

وإن كان الكتابان معصومين من الخطأ، إلا أن تفسيريهما، لأنهما (أي التفسيرين) عمل بشري، قد يقبلان الخطأ. من هنا يبدو سبب الخلاف الظاهري بين آراء العلماء واللاهوتيين، خاصة وأن اللاهوتيين في الكثير من الأحيان (مثل ما حدث مع جاليليو في القرن ١٧)، يظنون أن آراءهم العلمية لها نفس الصحة مثل آرائهم اللاهوتية في العقيدة، أو أن الرأي اللاهوتي هو نفسه الرأي العلمي.

إن أردنا حل هذه المشكلة نهائياً، علينا أن نعي أن **العلم** ليس إختراعاً بشرياً، بل هو إكتشاف الحق الذي في الكون، وهو يشرح لنا في نهاية الأمر: كيف خلق الله (How?). أي أنه يشرح لنا **الكيفية الحرفية**: "The Method" للخلق. ولكن ليس في مقدرة العلم أن يصف لنا الخالق، فهو لا يُرى ولا يُحتوى بوسائل الإستقصاء العلمية. أما **الكتاب المقدس والعقيدة اللاهوتية** التي تفسره، فهم يدرسان: **لماذا خلق الله**

(Why?) ومن هو الله. أي أنهما يشرحان لنا معنى الوجود "The Meaning"، وسببه وصانعه. إن أدركنا هذا الفارق بين الكيفية والمعنى (Meaning & Method)، تلاشت المشكلة نهائياً. فالعلم له أن يسبر غور الكون والمادة إلى أقصاه بدون أي حدود. ألم يعطنا الله سلطاناً على الخليقة؟ (تك ١: ٢٨) بل وأن نأكل من جميع ثمارها بحرية، ومن ضمنها الدراسة العلمية كنشاط وثمرة فكرية (تك ٢: ١٦)، على شرط أن نرعاها ونحرسها (تك ٢: ١٥)؟ لذلك فأنا لا أرى أي مشكلة لو إكتشفنا بالعلم، الحل لأصعب ثلاثة أسئلة يطرحها العلم والفكر:

١ - كيف بدأت **الخليقة**؟ أي تحول العلم إلى وجود!

٢ - كيف ظهرت **الحياة**؟ أي تحول المادة الغير عضوية إلى مادة عضوية (D.N.A.)!

٣ - كيف ظهر **الوعي** عند الإنسان؟ أي ظهور كائن عاقل من المملكة الحيوانية!

يظُن الكثيرون أن إكتشاف الكيفية (Method or How) هنا، سيلغي الحاجة إلى الإيمان بالله! ولكن هذا خوف بدون أساس. وذلك لأن السؤال الأعمق سيزال باقياً بدون إجابة، وهو «لماذا؟» (Why?)! لماذا حدثت هذه الخطوات الثلاثة في التاريخ؟ ماذا أو من يعطيها «المعنى» (Meaning) لوجودها وحدوثها؟ هذا سؤال ميتافيزيقي فلسفي ليس للعلم علاقة به، فهو خارج نطاق العلم التحليلي كلية. إجابة هذا السؤال الأخير هى دور ورسالة الكتاب المقدس وتفسيره. إلا أن الملحدين يظنون أن إجابة «الكيف» هى هى إجابة «لماذا»، أو على الأقل تغني عنها. وللأسف هناك الكثير من المؤمنين

من يظنون أن هذا الوهم حقيقة، لذلك يعملون جاهدين (بدافع الخوف) لمحاربة الإكتشافات العلمية على أنها عدو للإيمان، ومن عمل الشيطان لتضليل الإنسان!!

عندما علم جاليليو أن الأرض ليست مركز الكون فلكياً، خافت الكنيسة الغربية وحرمته، لأنها كانت تُعلِّم أن الأرض هى مركز الكون وأهم ما فيه! المشكلة هنا هى أن الكنيسة خلطت بين مركز الأرض في قلب الله والإنسان وبين مركزها الفلكي! الكنيسة هنا أرادت الدفاع عن العقيدة اللاهوتية برفض الحق العلمي. السبب واضح، وهو أنها لم تفصل بين «الكيفية العلمية»، و «المعنى اللاهوتي» كما شرحت؛ لم تفصل بين «كيف» و «لماذا».

يقول القديس باسيليوس الكبير: (Reason & Faith P. 261)

«قد نقول أن الأرض مستقرة على نفسها، أو نقول أنها محمولة على المياه؛ ولكن يجب أن نظل أمناء للإيمان الديني الصحيح، ونعي أن كل شئ هو قائم بقوة الخالق.. الحقائق العظمى لا تهزنا أبداً عندما نكتشف بعضاً من نظامها البديع».

ومن هنا نفهم أن فكر الآباء كان في عمقه يتوقع ويدعو إلى التمييز بين إحتمال التغيير في المعطيات العلمية، التي تدرس الـ «كيف»، وبين رسوخ الإيمان بالله الذي يجيب على «لماذا»، بدون أي تخوف من العلم واكتشافاته.

إلا أننا لازلنا نتخذ موقف الكنيسة الغربية من جاليليو، في موقفنا من

نظرية التطور والتي بدأها (Charles Darwin) عندما نشر كتابه الشهير: The Origin of Species - 1859. وبالرغم من وجود اعتراضات ونقد قيِّم لآراء داروين، بل وإصلاحات وتعديلات على نظريته، إلا أن الجل الأعظم من العلماء (والكثير منهم يؤمن بالله)، يعتقدون في صحتها ويقبلون ما يسمى (Neo-Darwinism)، كما يؤكد كتاب: Reason & Faith P. 318.

علّم داروين، وكل من يعتقد في هذه النظرية، أن الحياة على كوكبنا قد نمت تماماً كما تنمو الشجرة من جذع واحد ثم يبدأ في التفرع المتوالي لأعلى، بحيث أن قمم الأفرع فقط هى التي تبقى موجودة في أي وقت من الزمن. فإذا حفرنا في الأرض عند طبقة معينة، نجد فيها بقايا حفريات كائنات تلك الحقبة التاريخية فقط. ما شرحه داروين إذا، هو «الكيفية» التي خرجت بها الكائنات من بعضها البعض بالتوالد إلى حيز الوجود.

ولكنه لم يستطع (ولن يستطع أحد)، أن يجيب على سؤال «لماذا؟»، علمياً. لماذا إختار هذا الكون المادي هذا الخط التصاعدي من اللاشئ، إلى المادة المعقدة، إلى الحياة، ومنها قفز قفزته الرائعة إلى الإنسان الواعي؟ لماذا لم يسلك خطا آخراً؟ النظام الذي يشير إليه الخط البياني لإرتقاء الكائنات وصعودها نحو هدف رائع، يستدعي البحث عن سبب وغاية نهائية؛ هذا التطور البديع والمحير، لابد له من قيادة ورعاية وخطة أولية، وإلا فإننا ننسب إلى المادة عقلاً وفكراً وحكمة أعلى من الإنسان.. وهذا هو الوثنية عينها!! لذلك كتب الراهب الچيولوچي وأحد أعظم مفكري القرن العشرين، تياردي شاردين، في كتابه Man's place in nature، أن الله هو «ألف وياء التطور»، الذي بدأه من العدم إلى الوجود ومنه إلى الإنسان،

الذي لم يكتمل بعد، وهو لا يزال يقود مسيرة التطور ويتعهده حتى تحقيق الغاية العظمى وهى إتحاد الخليقة بالخالق (على شبه إتحاد اللاهوت بالناسوت في الابن المتجسد) في الأبدية.. ياء التطور. لذلك قد يصح القول، **أننا لازلنا في اليوم السادس للخليقة**، حيث أن الحالة الفردوسية للإنسان (صورة الله كشبهه على مثاله) لم تكتمل بعد.. وبما أن الآب لا يزال يعمل هو والابن والروح القدس (يو ٥: ١٧)، فاليوم السابع، يوم الراحة الحقيقى، هو في عمق معناه نبوءة عن راحة ملكوت الله النهائية، يوم يستريح الله من كل ما عمله (تك ٢: ٢)، ويحقق وحدته بالخليقة التي هى موضع لذته وعنايته.

عندما نقرأ: «وجَبَلَ الرب الإله الإنسان من تراب، ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حية» (تك ٢: ٧)، **لا يجب أن نفسر هذا على أنه عبارة علمية، تشرح الكيفية التي خرج بها الإنسان للوجود**. بل ما يريد الله شرحه لنا: أن الله هو الذي خلق، وهو علة وجودنا، وقد خلقنا من مادة الكون إلى جانب عنصر غير مادي، «نسمة الحياة»، (أو النعمة بحسب تعليم أثناسيوس الرسولي أو الروح القدس بحسب تعليم كيرلس الاسكندري)، التي جعلت الإنسان «نفساً حية» بصورة تختلف عن بقية الخلائق. وكما علم المتنيح الأنبا بيمين – أسقف ملوي – في عظة مسجلة عن خلق الإنسان (في مكتبة كنيسة مارمرقس – لندن – برقم P49، وعنوانها معرفة الله من خلال العالم)، علَّم وقال، سواء خُلق الإنسان في لحظة أو في ملايين السنين بالتطور من كائنات عليا، فهذا لا يغير شيئاً في رسالة الكتاب المقدس، وهو ممكن جداً. وهو بذلك يؤكد أن أرثوذكسية إيمانه لا تعارض الإكتشاف العلمي، كما في قول القديس باسيليوس السابق.

إن تعليم نظرية التطور يمكن تشبيهه بأن الخالق قد وضع «برنامجاً»، كما يضع العالِم برنامج الكمبيوتر، وبناء على هذا النظام نما الكون متفتقاً ومظهراً لنا الخلائق الحية بالتوالد بعضها من بعض، بصورة تلقائية. دور الله هنا، هو المصمم والمهندس والراعي والمتابع لسلامة ترجمة هذا البرنامج وتحقيقه. ولكنه ليس مثل الفخاري الذي يحتاج (لقصورِه)، أن يتدخل في كل مرحلة مرة أخرى، ليسد الثغرات والفقاعات التي قد تظهر في «الطينة» التي يشكلها. لذلك فالله لم يحتاج أن يصنع كل كائن بصورة مباشرة منفردة في التاريخ، ولكن أبدع النظام وقوانينه، بحيث يخرج من المادة الحية كل غنى المملكة النباتية والحيوانية، بصورة هادئة، بالتوالد وليس بالمفاجأة اللحظية. هذه الخطة تشبه تماماً نمو الجنين في بطن أمه: فهو يبدأ بخلية واحدة بها كمبيوتر صغير (١/١٠ ميللى متر) مكون من ٤٦ كروموزوما، ولكنه يحتوي على سر شكل وتكوين الإنسان وهو مائة عام!! هذا يحدث بدون تدخل آخر من الله، الذي وضع هذا النظام منذ البدء! ونحن نعرف أن هذا الجنين يشبه في كل مرحلة أجنَّة جميع الفقريات الأخرى، ولكنه لا ينحرف، بل يختار طريقه كقائد سيارة السباق بين أخطار وعوائق الأدغال والجبال بكل مهارة!

هكذا يشهد فهمنا العلمي للتطور عن عظمة الخالق وقدرته بصورة أعظم بكثير من تفسير الخلق اللحظي المباشر الذي يعتمد على حرفية تفسير إصحاحات التكوين ومعتمداً على آراء علمية عفا عليها الزمن، ومدافعاً عن نفسه بإسم الإيمان المستقيم.

وهذه بعض أقوال آباء الأرثوذكسية العظام، الذين علموا أن إصحاحات التكوين الأولى هى أساساً رمزية وقد ألهم الله كاتبها أن يقدمها لنا في هذا

القالب ليشرح لنا أموراً لها هذا الشبه التاريخي. لكن بسبب فهمنا البشري البسيط والقاصر سمح الله بهذه الرمزية:

يقول العلَّامة الأسكندري أوريجانس:

(Reason & Faith - Foster & Marston. P. 206-231)

«كيف يمكن لإنسان ذكي، أتساءل، أن يقبل معقولية أن اليوم الأول والثاني والثالث كانوا أياماً بدون شمس ولا قمر ولا نجوم، ولا حتى سماء في اليوم الأول؟!!

ومَن مِن السخف بالدرجة أن يصدق أن الله مثل الفلاح يزرع فردوساً شرق عدن... أو ... عندما يقول أن الله يتمشى في المساء. لا أشك أن أحداً يمكنه أن يخطئ فهم الرمزية في التعبير، لكي يشرح لنا أسراراً لها هذا الشبه التاريخي».

«في اللغة العبرية آدم تعني الإنسان، وفي الأجزاء التي يبدو فيها أن آدم شخص، يتكلم موسى عن الإنسان في عمومه من جهة طبيعته.. **الله لا يعني شخصاً منفرداً بل الجنس البشري كله**».

ويقول القديس أغسطينوس: **(Reason & Faith - P. 227)**

«كما تحمل الأمهات بالصغار، هكذا الكون حامل بأسباب الأشياء التي تولد».

ولا أعتقد أن أغسطينوس كان سيواجه مشكلة في قبول نظرية التطور إن كان فكره بهذا العمق!

أما القديس باسيليوس فقال: **(Reason & Faith - P. 205)**

«سواء قلت يوماً واحداً أو قلت الأبدية كلها فأنت تعني نفس الفكرة» – أي بالنسبة إلى الله وأيام الخليقة.

ويقول القديس ذهبي الفم عن ضلع آدم:

(Reason & Faith - P. 205)

«لا تأخذوا الكلمات بحسب الفهم البشري، ولكن فسروا عمق معناها من خلال الفهم الإنساني المحدود. كما ترون، إن لم يستعمل هذه العبارات فكيف كان من الممكن أن نفهم نحن هذه الأسرار التي تفوق الوصف؟»

(٢) السقوط : (The Fall)

يقول كوستي بندلي* في كتاب «كيف نفهم اليوم قصة آدم وحواء» إن الحالة الفردوسية هى في الحقيقة ترمز إلى إشتياق داخلي للكمال، وتحقيق هدف الخليقة أي ملكوت الله، **وهى ليست حالة تاريخية كانت وضاعت في الماضي، إنما هى أمامنا كحالة مستقبلية**، كان على الإنسان، لو عاش حسب النعمة المعطاه له ولم يفقدها، أن يحققها؛ ولكنه فشل في الحياة بحسب هذه النعمة. وقد كتب مكسيموس المعترف (انظر

---

* معلم حركة الشبيبة الأرثوذكسية بلبنان وهو من أعمق كُتَّاب العربية وقد قدمه لنا المتنيح الانبا بيمين.

كتاب The Mystical Theology of the Eastern Church-V. Lossky P. 109) «كان على الإنسان أن يوحد في نفسه كل الخليقة.. ثم يعطيه الله حالة التألُّه وبهذا تعطى حالة التألُّه هذه للخليقة كلها.. فينال الإنسان بالنعمة ما يملك الله بالطبيعة... ولكن بما أن آدم قد فشل في هذه المهمة، جاء المسيح آدم الثاني لكي يرينا ما كان ينبغي أن يحدث أولاً».

لذلك لا يجب فهم أن الإنسان كان بالطبيعة في حالة مختلفة عن طبيعته الآن بصورة جذرية، ولكنه كان يحمل نعمة تحفظه لو حفظها. وبما أنه قد أراد التألُّه من خلال ذاته بمشورة الشرير، فقد النعمة، التي كانت ستحفظه من الفساد ويتأله بها من خلال الطاعة للنظام الكوني الذي وصفه مكسيموس المعترف وآخرون (أنظر أيضا Orthodox Theology-V. Lossky).

لذلك **فالخطية الأصلية** وإن رمز لها بأكل ثمرة هى أساساً (سواء كانت القصة رمزية أو حتى حرفية) رغبة الإنسان أن يتأله بعيدا عن الله: «تصيران مثل الله عارفين الخير والشر» (تك ٣: ٥). **فتألُّه الإنسان** (deification) **كان هو هدف الخليقة كلها** كما علم الآباء الأولون ولم يكن إلا اشتياقاً في قلب الإنسان. لذلك فإغراء التأله من خلال الذات كان قوياً ولا يزال في كل إنسان. وهذا هو ما رُمز إليه بأن الشجرة كانت «شهية للنظر» (تك ٣: ٦). ويظهر أيضاً تحايل الشرير في أنه يستعمل جزءاً من الحقيقة، ويضيف إليه الكذب، وليس الإغراء كذباً كله. لقد أخطأ آدم النموذج، فلم يعلم أن التأله حقيقة لا يُمنح إلا من الإله نفسه، من خلال التشبه «بأخلاق الله»، كما قال أحد اللاهوتيين. لم يفهم آدم أن حياته وتألُّهه

كانا خطة الله التي تتحقق من خلال الحب والشركة على شبه الثالوث. لذلك، عندما أراد أن يستقل بذاته منفرداً عن مصدر الحياة والألوهية، **فقد النعمة وعاد إلى حالته القابلة للموت** بدون النعمة كما يعلّم أثناسيوس الرسولي: (تجسد الكلمة On the Incarnation. P. 29, 30).

إن خروج الإنسان من دائرة الحب والشركة والحياة - **هذا السقوط** - نتج عنه دخوله إلى دائرة العدم والموت. لقد قرر الإنسان بنفسه أن يشرب السم، وأن ينزع نفسه وهو الغصن من الكرمة الحقيقية (إبن الله الكلمة)، الذي بغيره لم يكن شيء مما كان ولا تستمر له حياة. إن عقوبة الإنسان تمت وتتم عند قراره بشرب السم. لذلك كُتِبَ أن آدم وحواء أصبحا «عريانين»! العري هنا هو حالة فقدان النعمة. هذا ليس عرياً جسمياً: فهناك قديسون قد عاشوا هكذا ولم يخجلوا، إنما هذا عري من النعمة، وتبعه تغرُّب مؤلم عن الله، رُمِزَ إليه باختباء الإنسان «خلف الأشجار» (تك ٣: ٨)، أي التلهي في المادة التي فُقدت منها النعمة (لُعنت). ومضى الإنسان يحاول كما يحاول الكثيرون في تأليف حجج لينكر على نفسه حالته المتغربة، وهذه هى «أوراق الشجر» التي حاكا منها مآزر (تك ٣: ٧). ولكنها لا تستر أمام الضمير الذي يخاطب الخاطئ عندما يهدأ إلى نفسه ويعي حاله في التأمل الروحي. هذا ما رُمِزَ إليه بنداء الله لآدم حين تمشى الله في الفردوس (in the cool of the day) (تك ٣: ٨).

كتب لويس إفلي (كيف نفهم اليوم قصة آدم وحواء): «إن الله لا يقتصُّ من أحد، الله لا يقتل أحداً، إنما الإنسان يقتصُّ من نفسه ويميت نفسه». نعم إن الله يُخيِّر الإنسان بين الحياة والموت، والإنسان بحريته قد إختار الموت.

ولكنه دائماً يعكس إنفعالاته ومعاناته، ناسباً إياها إلى الله نفسه كقاض مُرعب. لذلك فكاتب سفر التكوين ينسب إلى الله عقوبة الإنسان ومعاناته! كما لو كانت انتقاماً من الله لكرامته من هذا المخلوق الذي أهانه! ولكن حاشا.

نحن نصلي في القداس: «**أنا اختطفت لي قضية الموت....**» ولكن أنت «حوَّلت لي العقوبة خلاصاً». فكما يكتب الإنسان عن الله – بوحي منه قطعاً – «ندم الرب على الشر» (يونان ٣: ١٠)، أو «حزن في قلبه» (تك ٦: ٦) لأنه صنع الإنسان؛ كتب أيضاً عاكساً معاناته على أنها انتقامٌ من الله!! **ولكن الله لا يندم ولا يصنع شراً ولا ينتقم من الإنسان!** فمن هو الإنسان لكي ينتقم منه الله؟! وهل ينتقم الأب من إبنه؟! إن الله لا يجرَّب بسبب شر الإنسان وهو لا يجرب أحداً (يعقوب ١: ١٣) **أي أن شر الإنسان لا يثيره للنقمة**. وقد قال أيضاً لأيوب عن نفسه: «إن أخطأت فماذا فعلت به، وإن كثرت معاصيك فماذا عملت له، إن كنت باراً فماذا أعطيته أو ماذا يأخذ من يدك، لرجل مثلك شرُّك ولابن آدم برُّك» (أيوب ٣٥: ٦– ٨).

إن نتيجة الخطية – أي العودة إلى العدم إلى التراب بالموت – كانت نتيجة تلقائية بحسب الناموس الكوني الذي وضعه الله أن «أجرة الخطية موت». ولكن ليس الله هو العشماوي منفذ الحكم، بل الإنسان هو عشماوي نفسه وهو يقتل نفسه بخطيئته: «لا يقل أحد إذا جُرب إني أجرب من الله (أي أعاقب منه)، لأن الله غير مجرَّبٍ بالشرور وهو لا يجرب أحداً. ولكن كل واحد يجرب إذا انجذب وإنخدع من شهوته. ثم الشهوة إذا حبلت تلد

خطية، والخطية إذا كملت تنتج موتاً. لا تضلوا يا أخوتي الأحباء. كل عطية صالحة وموهبة تامة هى من فوق نازلة من عند أبي الأنوار الذي ليس عنده تغيير ولا ظل دوران» (يع ١: ١٣– ١٧). هذا يعني أن الله – الذي هو حب وعطاء كله – لا ينتج شراً ولا موتاً. بل الشر والموت ليس نتاج عمل يديه اللتين تخلقان فقط ما هو جيد. أما الشر فهو العدم وعدم الكمال والاتجاه نحو الظلمة خروجاً من دائرة النور. هكذا علم أثناسيوس والآباء أن الشر ليس له جوهر. كما أن الظلمة والقبح هما إنعدام النور والجمال هكذا الشر هو انعدام الوجود والهروب من النور إلى الظلمة الخارجية. إنه حركة سلبية، ولذلك هو النقيض للخلق والحياة.. وهذا هو هدف الشيطان: إن لم ينجح في تدمير خليقة الله فهو يسعى جاهداً لتشويهها بالكذب ليحولها بعيداً عن مسارها نحو الوحدة مع الله والتأله. هذه هى مشكلة الشر. والشر لا يخلق شيئاً لأن الله هو الخالق الوحيد. لذلك فالمناداة بشرٍّ المادة، كما علم الغنوسيون والمانويون، هو شرك بالله لأنهم يجعلون الشر ذا جوهر وذا فعل خلاق في حين أنه العدم نفسه.

إذ رفض الإنسان التأله بالنعمة، ورفض وبدد نعمة الحياة التي كانت له بصورة **كامنة** (مثل نعمة المعمودية الآن)، وكانت تقتضي أن يتعاون مع الله ليجمع الخليقة إلى حضن الآب، سقط الإنسان ولا يزال متخبطاً، إلى أن جاء إبن الله ليعيد لنا النعمة ذاتها بل وبلا رجعة ولا ندامة هذه المرة. لذلك فالحديث عن وراثة الخطية لا يُفهم كما علّم اغسطينوس، بأننا نرث ذنب آدم. فالله رفض هذا المبدأ: «لا يقولون بعد الآباء أكلوا الحصرم وأسنان الأبناء ضرست، بل كل واحد يموت بذنبه، كل إنسان يأكل الحصرم تضرس أسنانه» (إرميا ٣١: ٢٩– ٣٠). ليس ذنبه، لأن الخطية مثل نعمة

المعمودية – مع الفارق – لا تورث. ما ورثناه عن آدم هو الطبيعة البشرية بدون نعمة الله، التي يمكن أن تحفظها من الفساد. هذه هى طبيعة التراب التي عاد إليها الإنسان إذ رفض نعمة التأله كإبن لله في الطاعة. لذلك فالإنسان بدون نعمة الروح القدس يسمى Sarks = Flesh، لأنه مجرد لحم فقط كما تعني الكلمة حرفياً، ومآله الفساد والحرمان الأبدي من الله، أي الموت الروحي في الظلمة الخارجية. والإنسان بنعمة الله يسمى Pnevma = Spirit، أي «روح». **وهذا يشمل جسمه المادي أيضاً**. ولذلك نسمى الصلاة بالسجود والأصوام، وأي مجهود في سبيل الكرازة «عمل روحي» وليس «أعمال جسدية» مع أنها معمولة بالجسم المادي مع روح الإنسان. وهذا الفهم أيضاً يسهِّل لنا قبول ظهور الإنسان في الطبيعة بالتطور من الناحية الجسمية. لأن «التراب» الذي صُنع منه آدم يمكن جداً فهمه على أنه المخلوق الحيواني الذي لم تكن فيه نعمة الوعي والروح، و «نفخها» الله فيه ليدرك ويدخل في حوار مع الخالق الذي خلق الإنسان على مثاله كشبهه. هذا الفهم أيضاً يُمكِّنا من إدراك أن **الطبيعة «الحسنة» بحسب (تك ١)، لم تكن طبيعة معجزية لا يموت فيها الحيوان والإنسان**. بل كانت هكذا: يموت فيها الحيوان ويمكن للإنسان «عدم الفساد» لو احتفظ بالنعمة.

إذا رفضنا هذا التفسير – وهو يتفق جداً مع تعليم أثناسيوس والآباء – وأردنا التعليم بأن قبل خطيئة الإنسان لم يكن هناك من موت جسمي نهائياً فسوف ندخل في متاهات لاهوتية لا حصر لها. فهناك مثلاً قانون في الطبيعة إسمه Second Law of Thermodynamics يقول بأن كل شئ قابل للإنحلال. والمعروف أن المادة إذا تحولت لطاقة تتبدد مع الوقت وهى تتحول من طاقة إلى أخرى. فهل خلق الله هذا القانون بعد السقوط؟! هل

كانت الحيوانات كلها نباتية؟! نحن لا نعرف أسوداً بدون أنياب ومخالب في حفريات الأرض. وإذا لم يكن هناك مرض أو موت، فهل خلق الله الميكروبات بعد السقوط وهل كان الإنسان والحيوان بدون أجهزة مناعة ضد المرض؟! ولماذا كان على آدم أن يخشى الموت إذا لم يكن يحدث أمامه كل يوم للحيوان؟! انعدام الخبرة يلغي قيمة التحذير «موتاً تموت»! وهل لم تكن هناك براكين ولا زلازل؟! هل كانت الطبيعة يوماً ما هادئة بلا زوابع وأعاصير؟ أم هل كان الحيوان والإنسان منيعاً ضد الموت من الكوارث الطبيعية؟! إن كانت الحية شخصية حرفية لا رمزاً، فهذا يقتضي أن قبل السقوط كانت هناك حية واحدة، حكيمة تتكلم ولها أطراف، وكانت في صداقة مع الإنسان ثم تحولت إلى ألد أعدائه من الحيوانات، ولا تأكل إلا التراب!! هذا كله غير مقبول بكافة المقاييس.

إذا أخذنا (تك ١ – ٣) حرفياً، فكيف نفسر أن السيد المسيح هو شجرة الحياة كما علم بعض الآباء؟ وكيف تكون الشجرة نفسها في وسط أورشليم السمائية (رؤ ٢: ٧) وذكرت كرمز في أمثال ٣: ١٨ و ١١: ٣٠ و ١٣: ١٢ و ١٥: ٤؟ وإذا كنا نقبل أن شجرة الحياة رمز والأيام الستة رمز، وأكل الثمرة رمز لتأله الإنسان بعيداً عن الله، كما علم جيل الآباء، وأن نسل المرأة الذي يسحق رأس الحية هو السيد المسيح، وأن التراب ممكن كرمز «للأنسان الأول» قبل نفخ نسمة الحياة – أي النعمة – فيه؛ فكيف ولماذا نصرُّ أن أجزاء هذه القصة حرفية مع أن سياق الحديث كله شعري رمزي؟!!

إن الرمزية لا تعني الكذب ولا تقلل من شأن الحقيقة، فالسيد المسيح نفسه استعملها في أوصاف الملكوت، بل وشخصه هو نفسه!!

فالملكوت ليس «حبة خردل» ولا «شبكة» ولا «عرس لرجل غني» ولا «شجرة» تتآوى فيها الطيور، بل هو وجود روحي في حضرة الله. مع ذلك إستعار الرب هذه الأمثلة ليحدث بها ذهن الإنسان دخولاً إلى قلبه البسيط. وأيضاً قال عن نفسه أنه «حجر الزاوية» و «باب الخراف» بل و «الحمل المذبوح قبل إنشاء العالم»، و..... الخ.

(٣) الفداء والخلاص: Redemption & Salvation

بعد أن قتل الإنسان نفسه بفشله أن يحيا في الشركة مع الله بالنعمة التي كانت له، أراد الله أن يجددنا ويرفعنا إلى رتبتنا الأولى - كما نصلي في القداس. أراد أن يحول لنا العقوبة خلاصاً. كذلك جاء ليفتدينا، أي يعيدنا إلى الحياة (أي معرفة الآب والابن بالروح القدس - يو ١٧) ويعيد الحياة إلينا مرة ثانية.

وبعبارات أثناسيوس الرسولي، يعيد لنا «النعمة» التي بها نُعطَى سلطانا أن نكون أبناء الله (يو ١: ١٢)، بدلا من العودة إلى التراب و «الفساد». الخطوة الأولى، إذا، هى إخراج السجين من سجن الموت. أما كمال الخلاص فهو في العودة إلى الشركة مع الآب كما كتب بطرس الرسول في جسارة مذهلة: «أن نصبح شركاء الطبيعة الإلهية». ولكي يخرجنا البطل من السجن كان عليه **أن يدخله ليحل قيودنا ويدمر هذا السجن، لا لكي يبقى فيه ليقتص الآب منه بدلاً منا كما قد يُفهم**، إذا علمنا أن الكفارة هى في أن يقتص من واحد عوض الآخر.

وقد ترجمت كلمة «كفارة» في نسخة (The Good New Bible) الكاثوليكية:

"The means by which sins are forgiven" وذلك لشرح وتوضيح معنى كلمة «كفّارة» والتي كانت تترجم: "Propitiation" or "Atonement"

إن **الكفارة التي قدمها المسيح هى في رفع الموت** (عقوبة الخطية) عنا إذ **أعطانا حياته** أي «دمه». **لأن كلمة «دم» لا تعني الموت أو «أخذ الحياة»** بل تعني **«الحياة المعطاه» (كما في التناول) لنا لنحيا بها.** إن موت الذبيحة هو الوجه السلبي من الكفارة في العهد القديم، ذلك الذي لم يرض به الآب فهو: «بمحرقات وذبائح للخطية لم تُسّر.. إنك ذبيحة وقرباناً ومحرقات وذبائح للخطية لم تُرِدْ ولا سُررت بها... هأنذا أجئ لأفعل مشيئتك يا الله... بهذه المشيئة نحن مقدسون بتقديم جسد يسوع المسيح مرة واحدة» (عب ١٠: ٥- ٩). والله لم يُسرّ بهذا الوجه السلبي، لأنه ليس بساعٍ وراء العقوبة بأي حال من الأحوال بل هو يُسرُّ بأن الخاطئ يرجع ويحيا بالحياة المعطاه له. ولكن لأن الذبيحة كانت حيوانية كان موتها دائماً.

فأي مسرة أسألكم في رؤية الذبح وإسالة الدماء التي تصعب رؤيتها إلا من إله سادٍ قاسٍ لا يسكت إلا إذا انتقم من عدوه؟! هل هذا هو الآب السماوي؟! حاشا إن القراءة السريعة لذبائح اللاويين قد يفهم منها هذا الفهم الخاطئ. ولكن الصورة تتجلى في ذبيحة السيد المسيح. إن الآب قد «سُرَّ أن يسحقه بالحزن» (إش ٥٣: ١٠) ليس لأنه قد نال مراده وإقتص لعدالته، كما يوحى بذلك ميمر العبد المملوك، بل مسرته كانت لرؤيته

لخلاصنا لا لآلام إبنه الحبيب الذي به يُسَرّ. لقد سُرَّ الآب لأنه فرح مع فرح الإبن الذي يشرحه بولس الرسول قائلاً: «من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب مستهيناً بالخزي» (عب ١٢: ٢). هذه هى مشيئة الآب: حياتنا الأفضل (يو ١٠: ١٠)، وليس القصاص.

إن كفّارة الرب عنا لا يجب فهمها من جانب الموت السلبي ولا القصاص القانوني، فهذا ليس الدافع وراء ذبيحة الرب على الصليب، بل الدافع هو أن يُدْخِل الحياة لجسد بشريتنا (Life transfusion) ليطهره من الموت ويرفعه من العدم والفساد – أي الموت – إلى الحياة والتأله مرة ثانية. إنه عمل الطبيب المسعف، عمل من ينجي الغريق، وليس عمل البديل القانوني للقصاص. هذا تشويه مريع لصورة الله وعدالته. لقد علق قداسة البابا شنوده على ميمر العبد المملوك في كتاب سنوات مع أسئلة الناس (رقم ٤) وأبدى عدم إرتياحه للتضاد الظاهر بين عدل الله ورحمته. فالله ليس فيه تضاد ولا كانت عنده مشكلة بسبب خطية الإنسان. إنما المشكلة في الإنسان، وليست بين الرحمة والعدل الإلهي، ولا هى بين الآب والابن إطلاقاً؛ هذا فهم بشري قانوني قائم على فهم الدين والدينونة بصورة إنسانية ساقطة.

إن موت الرب «عنّا» أو «لأجلنا»، كان ضرورة حتمية ليدخل إلينا داخل سجن الموت. حباً فينا ذاق الآلام، وبذله الآب وأخلى الإبن ذاته. لقد شاركنا موتنا، أي عقوبة خطيتنا، حتى يستطيع أن يوصل لنا حياته ويحقنها فينا. بهذا فقط استطاع أن يسترضى الآب.

لقد تجسد الرب ليس بسبب الخطية فقط، بل بسبب ترتيبه (تدبيره)

الأزلي أنه سوف يقدم نفسه للاتحاد الدائم بالخليقة من خلال تأليه الإنسان ممثل هذه الخليقة. وحتى لو لم يخطئ الإنسان، كان اتحاد الله بالخليقة (وهو ما تم بتجسد الكلمة)، سيتم بصورة أو بأخرى لا نعلمها (بول اقدوكيموف: المرأة وخلاص العالم ص ٢٣). وذلك كما قلنا لأن الله لا تلزمه الضرورة ولا يهزه شر الإنسان ولا يجربه (يع ١: ١٣). لقد دخل اللاهوت الأزلي إلى البشرية المخلوقة ليجددها (في كل مراحلها)، ويغذيها بحياته وينعشها بقوته وبهاء مجده، **لا لكي ينحدر هو إلى موتها وترابيتها**. كان ينبغي أن يموت الرب مؤقتاً جداً، لكي يدوس الموت بالموت ويدخل إلى هذا السجن من بابه **ليدمره للأبد لا لكي يُسجَن فيه بدلا منا!**

لذلك فنحن نعيّد لخلاصنا في **كل مرحلة من مراحل حياة الرب**، أي البشرية الجديدة (آدم الثاني) بداية من البشارة وإلى الصعود وحلول الروح القدس. ولا نعيد للصليب وحده. هذا هو الفهم الأرثوذكسي الذي يهتم بتجديد البشرية والكون كله في كل قداس إلهي ترفع فيه ثمار الكون من الخبز والخمر حتى يستعلن لنا الابن المتجسد على كل مذبح بدون تكرار للذبيحة، حيث أنها فوق الزمن «الحمل المذبوح قبل إنشاء العالم»!! وللأبد في وسط عرش الله!!

إن عدالة الله كانت تستحق وتستدعي أن يُخلِّص ويُنجِّي مَنْ خَلَقهم من عبودية العدو، فهذه شيمة الملك القوي؛ **لا أن يَقْتَصّ لينتقم من الإنسان على تعدي الوصية!** إن هذا التصور هو من ضعف الإنسان الذي قال عنه ڤولتير: «لقد خلق الله الإنسان على صورته

أما الإنسان فردَّ له المثل»! أي تخيل الله على شاكلة الإنسان!

ويقول أثناسيوس الرسولي، أن الملك القوي لا يهادن عدوه بل يذهب ويهزمه ويحرر شعبه الذي كان قد أسره العدو. أليس هذا هو عدل الله الذي يخلِّص (مز ٣١: ١) و (مز ١٤٣: ١١) و (مز ٩٩: ٤) و (مز ٣١: ٥).

عندما كتب أوريجانس، أن الإبن قد قدم نفسه فدية للشيطان ليحلنا من الأسر، رد عليه القديس غريغوريوس اللاهوتي بالرفض! لأن الملك لا يهادن المجرم ويسلمه نفسه فدية. وقال غريغوريوس: «يجب أن نفحص الآن السؤال والعقيدة التي طالما نَعبُر عليها في صمت، ولكني أعتقد أنها تستحق الدراسة العميقة. لمن قُدم ذلك الدم الذي سفك لأجلنا؟ بل ولماذا سفك؟!... إن قلنا: للشيطان، فهذا أمر فظيع، هل يأخذ اللص فدية، ليست فقط من الله، بل ان الفدية هى الله ذاته! وهل يطلب هذا الثمن أجرة لإستبداده حتى يطلق سراحنا؟!

أما إذا كان الثمن قد دفع للآب، فأنا أسأل أولاً: كيف؟ لأن الآب لم يمسكنا كرهينة. لماذا إذاً سُرَّ الآب بدم إبنه الوحيد، وهو الذي لم يقبل إسحق حين قدمه إبراهيم ذبيحة محرقة كاملة، بل بدّل الذبيحة البشرية بكبش؟.

أليس الأمر واضحاً، **أن الآب قد قبل الذبيحة ليس لأنه طلبها، أو كان في إحتياج إليها، ولكن لأجل تدبيره: لأن الإنسان لابد أن يقدس بإنسانية الله**، والله نفسه يجب أن يخلصنا بأن يغلب المستبد بقوته هو، وأن يردنا إليه بواسطة الإبن الذي يفعل هذا كله لمجد الله الذي أطاعه (الابن) في كل شيء... ما قد تبقى من الحديث سنعبره في صمت

مقدس... لقد إحتجنا لإله متجسد، **إله يميت الموت حتى ما نحيا نحن....»**

(The Mystical Theology of the Eastern Church, p. 152)

إن الإنسان هو الذي فقد حياته وبدد نعمة الله، **فصار مديوناً لله في نفسه**. أي أن الدائن هو الله، والمدين هو الإنسان. ولكن **الله يريد دفع ما قد تبدد (حياة الإنسان) للإنسان نفسه**. لأن الله ليس في حاجة لحياة أخرى تُقدَّم له وهو الحياة ذاتها! لذلك فقد يصح مجازياً القول بأن **الدين الذي ردَّه الرب بذبيحته قد ردَّه فينا ولنا، وبهذا سُرَّ الآب وفرح**. وبهذا أصبح عدله راضياً إذ رآنا – في المسيح حامل بشريتنا – قد غلبنا الموت الذي تملك علينا.

إن الله حب كله، وهو أمين وعادل لأنه لا يتغير. إن الرب في معاملته للإنسان هو هو أمس واليوم وغداً. وهو نفسه وبوجه واحد سيعلن نفسه في الزمن في المجئ الثاني. إلا أن الإنسان سيراه بصورتين على النقيض من بعضهما البعض: فمن أحبوا النور يُقبلون إلى النور والقداسة والجمال وأما من أبغضوا النور فسيقولون للصخور والجبال أسقطي علينا وغطينا من وجه الجالس على العرش. (يو ٣: ١٩– ٢١ و رؤ ٦: ١٦). وبمعنى آخر عقوبة الخطية ودينونة الله لها، ستكون من خلال إعلان نوره وقداسته ومحبته!! فمن يتناغم معه سينجذب نحوه، أما من سيخجل من هذا النور والحب المخجل والقداسة التي تفضح الشر سيجري بعيداً. هكذا يجب أن يُفهم عدل الله ورحمته معاً في آن واحد، وبدون أن يتغير هو من محب إلى غضوب وقاسٍ. لكن انعكاس حبه هو الذي يتغير في عين الإنسان، بحسب المحبة

الكامنة والقداسة التي تربت في حياة هذا الإنسان، أو قبح شره وتوحشه (Monstrosity).

إن الله هو واضع الناموس الأزلي، أن «أجرة الخطية موت». وهو أيضاً الديان العادل بمقتضى هذا القانون. ولكن **معاملات الله لا يصح أبدًا فهمها على شبه معاملات البشر.**

فالقانون والعدل الإنساني يبدأ بالمحاكمة لإظهار جرم المذنب، لأننا أساساً نجهل ما قد حدث! وهدف العقوبة بعد الحكم هو النقمة والقصاص من المذنب لري عطش المجني عليه للإنتقام ورد الكرامة التي أهدرت – وليس هو حقيقة للإصلاح كما يدعي!! أيضاً لا القاضي ولا محامي الدفاع مهتمان بإنسانية المجرم بل كل ما يهدفون إليه هو القصاص العادل أو الربح!

أما الله فليس كذلك إطلاقًا. وإن كنا كثيراً ما نصفه بهذه الصورة، لأنها الصورةالوحيدة التي نعرفها للعدالة.. بل وهكذا قد فهم كتّاب العهد القديم العدالة، كما فهمها التلاميذ عندما طلبوا من الله أن ينزل ناراً لتحرق من لم يقبلوه!! إن الله حقاً «نار آكلة» كما يراه الأشرار، ولكنه حضن أبوي دافئ كما يختبره أبناؤه، وهو في ذلك لا يغير وجهه، بل الاختلاف يتوقف على الإنسان المواجه لله: إن كان يحيا ببر الروح القدس أم بوسخ الشر القبيح الذي يفتضح بالنور الإلهي. لذلك يصح القول بأن **الله يدين الشر بكونه «المرجع»** (Reference) **للقداسة**، الذي يقاس عليه كل من يقف أمامه، وليس بالدخول في المحاكمة حسب النظام البشري الذي يترجى الإنتقام من المجرم لرد الكرامة المفقودة (Prosecution).

إن شر الإنسان لا يمكن أن يجرح كرامة الله، ولا يهينه كما قال عن نفسه (أيوب ٣٥: ٦- ٨) فكيف للإنسان أن يمس كرامة الله، حتى لو فعل الإنسان كل ما في وسعه من شر!!؟ ولو حتى أردنا مطابقة عدل الله ودينونته للإنسان بعدل البشر الناقص والمتعطش للدماء، فلن نستطيع! لأن الله الذي هو السلطة التشريعية والقضائية، هو نفسه أيضاً المحامي والمدافع عن الخاطئ (الپاراكليت)! والإنسان الخاطئ هو المجرم والمجني عليه في آن واحد، حتى وإن كان الشيطان هو القوة المحركة للشر. لذلك عندما كتب أثناسيوس الرسولي عن الفداء والكفارة لم يعلِّم (كميمر العبد المملوك): أن الخطية كانت إهانة لله. بل علَّم أنها إساءة للإنسان، الذي فقد وبدد نعمة الحياة بنفسه بغواية الشرير. وهذا لم ينشئ مشكلة في شخص الله، بل أنشأ مشكلة الموت في شخص الإنسان وحده. لذلك يُفهم الدافع وراء تدبير الفداء على أنه رغبة الله أن: «يردنا إلى رتبتنا الأولى» و«يحول لنا العقوبة خلاصاً» بأن يصنع لنا وفينا عملية «**نقل الحياة**»، "Life transfusion"، كما نعطي نقل الدم لمن قد نزف ما فيه من حياة. وأما تنفيذ عدالة الله في حكم «موتاً تموت»، أي أن «أجرة الخطية موت»، فهذا قد تم ويتم لحظة السقوط في الخطية على أية حال، ولا يحتاج أبداً من الله لتدخل آخر. فالخاطئ يقوم بهذا القصاص العادل بنفسه عندما يخطئ بدون تدخل آخر خارجاً عنه! لذلك فقصة الخطية الأصلية توضح أن آدم قد تعرى من النعمة بمجرد الأكل، وهذا هو الموت الروحي. إن لقاء الله معه عندما ناداه «آدم أين أنت» (تك ٣: ٩)، لم يكن طلباً في محاكمة آدم واثبات جريمته استعدادا لعقابه، بل كان نداءً لمن مات وتعرى وتغرب، لعله يرجع ويحيا لأن في هذا فرح الله والإنسان.

أما اعلان نتيجة الخطية من حيث لعنة الأرض وخروج الإنسان للألم خارج الفردوس، فقد عرضه لنا الكاتب عاكساً اختبار التغرب على الله، كما لو كان الله هو المتسبب في العقوبة. لأن هذا حال الإنسان الساقط، أن **يعكس ويسقط بؤسه على الله.** بل وعلى كل من حوله، محاولاً الهروب من مرارة الحقيقة: أن الإنسان هو حقيقة عشماوي نفسه! لذلك يكتب الإنسان عن رحمة الله وإزالة معاناته في العهد القديم أن «الله قد ندم على الشر» الذي كان مزمعاً أن يعمله.... وهل يعقل هذا؟! يجب فهم موقف الإنسان الظالم هذا، تجاه الله، جيداً حتى لا نسئ فهم الله نفسه وموقفه منا.

إن الله برئ من هذا الظلم الذي ينسب العقوبة إليه، كمريد ومنفذ عقوبة الخاطئ، إنما هو أسلوبنا البشري القاصر في التعبير الذي قد يظهره هكذا. لذلك يعاتب الله شعب إسرائيل في إشعياء (٥٠: ١) موضحاً لهم أنه لم يُطلِّقهم ويطردهم عنه، بل هم الذين تركوه بسبب خطاياهم:

«هكذا قال الرب، أين كتاب طلاق أمكم التي طلقتها أو مَن مِن غرمائي الذي بعته إياكم، هوذا من أجل آثامكم قد بُعْتم ومن أجل ذنوبكم طُلِّقت أمكم»

"For your iniquities you have sold yourselves - New King James Version". وأيضاً في إرميا (٢: ١٣): «لأن شعبي عمل شرين: تركوني أنا ينبوع المياه الحية، لينقروا لأنفسهم آباراً، آباراً مشققة لا تضبط ماء». ولذلك هلكوا عطشاً بخطيئتهم!. أيضاً الإبن الضال كان يتألم متشرداً في كورة الخنازير عقاباً على خطيته، ولم يكن أبوه هو سبب عقوبته ولا

راغباً فيها. كذلك الغصن الذي لا يثبت في الكرمة ويقطع نفسه، يميت نفسه. ولكنه قد يصف هذا بأنه «غضب» الكرمة، ولعنتها ودينونتها – ظلماً وتجنِّياً منه عليها! إنه مثل السمكة التي إختارت بحريتها الخروج من الماء ومثل شارب السم: يهلك «ويموت في خطيئته» بنفسه، كما قال الرب (يو ٨: ٢٤). هكذا نفهم تعبير «يمكث عليه غضب الله»: على أنه الإحساس الذي تولده الخطية في داخل الإنسان الخاطي، وليس في داخل الله ذاته؛ الذي ليس فيه تغيير ولا ظل دوران بسبب الخطية.

إن قارئ أقوال آباء الأرثوذكسية في القرون الأولى (الآباء الشرقيين Greek Fathers) لا يشعر بأي تركيز على مشكلة العقوبة والقصاص في شرح الفداء والخلاص. بل التركيز كله على رغبة الله في تأليه الإنسان والاتحاد معه ورده إلى رتبته الأولى، والحياة التي بددها الإنسان. أما كثرة التركيز على الموت والعقوبة والقصاص والدينونة الرهيبة مع شرحها بحسب الخبرة البشرية المشوهة – كما ذكرت – فيبدو أنه وليد العصور الوسطى في الكنيسة الغربية، عندما شرح اللاهوتيون قصة الخلاص على أساس ومحور «**القانون والعقوبة**»، وليس على أساس ومحور «**النعمة والحب**»، كما في القرون الأولى. وهذا لا يحتاج لدراسة واسعة للتأكد منه. تكفي قراءة صلوات القداسات التي في الخولاجي المقدس خاصة القداس الغريغوري الذي يترنم بالحب ولا يذكر للقصاص والنقمة أي ذكر!! ولعل هذا ما دفع الكنيسة الغربية لإستعمال محاكم التفتيش وصكوك الغفران وحتى عقيدة المطهر! إذ أن الله في نظرهم لن يستريح له بال إلا إذا أتم عقوبة الخاطئ وأذله حتى آخر نسمة بل وبعدها أيضاً في المطهر (Purgatory)! وقد كتب كوستي بندلي في كتابه الشهير «إله الإلحاد

المعاصر» (منشورات النور – لبنان ص ٩٦):

«إن فكرة تكفير الخطايا حجبت عن الكثيرين الغلبة التي جاء المسيح ليمنحها لنا، والتأليه الذي نادى به الآباء منذ كتب إيريناوس عبارته: لقد صار الإله إنساناً لكي يصير الإنسان إلهاً. هذا الإنحراف الذي كثيراً ما شوه تصور المسيحيين لعلاقة الله بالإنسان قد حدا بهم – ولا يزال – إلى اتخاذ مواقف فكرية مؤسفة لا تليق بالله ولا بالإنسان. منها ما دعاه مونييه بالسادية اللاهوتية وقد وصفها بأنها إرادة إذلال الوضع البشري».

إن هذا الاتجاه الفكري خاصة في الغرب يشكل القاعدة الأساسية التي نما الإلحاد المعاصر عليها وترعرع، مناديا بحرية الإنسان وكرامته في مواجهة إله سادي صوّره المسيحيون – ولو عن غير قصد – كما لو كان إما يريد القصاص لكرامته دائماً، كما علمت الكنيسة الغربية، أو إرغام الإنسان على حبه قسراً إن أراد الحياة! لذلك نادى نيتشه الفيلسوف الملحد بأن الله قد مات.. ليتحرر الإنسان: "God is dead" NIETZSCHE.

إلا أن الله الذي أعلن عن نفسه بالكمال في إبنه، الذي هو «أيقونة الآب ورسم جوهره»، فهو لم يأت ليُهلك بل ليُخلِّص ما قد أهلكه الإنسان بنفسه وبشره... الرب يسوع المسيح مخلصنا ليس فيه نقمة ولا رعب ولا قصاص بل هو نور وحب وجمال كله.. فإن تناغم رنين حبنا معه إنجذبنا إليه، وإن تقوقعنا وانعزلنا عن النور والحق والمحبة، فسنصرخ للجبال والصخور أن تغطينا من وجهه متى ظهر في مجيئه الثاني... أما هو، فهو أمين لحبه ورقته ولا يتوحش ولا يغضب كغضب البشر، كما يدّعي عليه الملحدون. بل إن توحُّش الخاطئ هو سبب رعبه وسبب شعوره بغضب الله، وقبح

خطيئته وتغرُّبه عن الله إلى الأبد هو النار الأبدية التي يجري إليها من يخاف النور والقداسة، التي بها يعاين الأبرار الله إلهنا. إن الله لم يخلق الموت ولا جهنم، التي «أُعدت» لإبليس وملائكته! بل يبدو أن صمت الكتاب عن ماهية العذاب الأبدي – من جهة بدايته وسببه – هو أنه في عمق معناه نتيجة للخروج من النور. وهو مثل الشر ليس له كيان ولا جوهر. فكما أن الظلمة ليست بموجودة، بل هى مجرد انعدام النور، وكما أن القبح ليس إلا انعدام الجمال، وكما أن الموت ليس إلا انعدام الحياة... كذلك **جهنم هى انعدام رؤية الله وبدون أي رجاء في العودة من الظلمة إلى النور.. للأبد..** جهنم ليست أساساً، وجوداً آخراً، بل إنعدام الوجود والحياة في الوحدة مع الثالوث القدوس.

(٤) الكنيسة والأسرار المقدسة:

وإذ تبدأ قصة الخلاص بالخلق والتأكيد على أن خليقة الله كلها حسنة، وأن الإنسان بكل ما فيه حسن جداً من جهة طبيعته الأصلية، يكون الفصل الختامي فيها أيضاً هو تأكيد أن ما كان «**حسن وحسن جداً**» (تك ١: ١٩، ٣١)، أصبح بعد تجسد الرب الإبن الكلمة وحلوله فيه: « **مقدس ومقدس جداً!**» فالقصة كلها مبنية على محبة الله العجيبة للخليقة كلها التي كان لها تدبير التأله بالنعمة قبل إنشاء العالم. ثم إذ فشل الإنسان في أن يجمع الخليقة كلها في نفسه ويقدمها للآب (أي أصبح في حالة السقوط واللعنة بعد أن فقدت النعمة منه ومن الخليقة) كما قال مكسيموس المعترف، جاء الإبن واتحد بالخليقة: جاعلا لاهوته واحداً مع ناسوته بغير إمتزاج ولا اختلاط

ولا تغيير ولا إفتراق ولا حتى إلى لحظة أو طرفة عين... **زواج أبدي بلا ندامة بين الله والإنسان والكون كله** (ممثلاً في الجسد البشري الذي أخذه من والدة الإله). هكذا تؤكد الكنيسة وبكل قوتها، لأن في هذا الإدراك والإيمان خلاصنا كله. فكيف تتحقق السعادة الأبدية إن كنا لا نتحد نحن أيضاً بالله على نموذج وشبه إبنه المتجسد؟ إن كان هذا غير ممكن فنحن أشقى جميع الناس. لذلك تصدت الكنيسة للهرطقات لأنها كلها كانت في مضمونها تنص على إستحالة إتحاد الله بالخليقة إتحاداً حقيقياً، تحتفظ فيه كل من الطبيعتين بكامل صفاتها للأبد، كإتحاد الحديد المحمي بالنار التي تنيره بقوتها.

وإذ صنع الإبن المتجسد هذا الفداء وصالحنا مع الآب، ارتضى الآب السماوي أن يقبل باكورتنا في السماء في شخص الرب الذي **أصعدنا في جسده** وأجلسنا معه في السماويات عن يمينه. وإذ قال إنه لا يتركنا يتامى، أرسل لنا روحه القدوس ليحل فينا، ويعطينا استحقاق أن نكون أبناء الله – وهذا أحد معاني التألُّه بالنعمة – ليكون لنا التمتع بعربون الملكوت بالفعل ويحقق فينا بالتبني ما قد تحقق في باكورة الخليقة الممجدة – أي الطبيعة البشرية التي أخذها الرب في نفسه كممثل لنا في حضن الآب السماوي.

لذلك بحلول الروح القدس تم تدبير الخلاص وأصبح ممكناً أن يروي عطش الخليقة كلها التي «تئن منتظرة الخلاص» من البطل – أي الفساد – (Futility) الذي حل فيها حين فقدت منها النعمة وأصبحت بالتالي في حالة اللعنة مع الإنسان (رو ٨: ٢٠ – ٢٢).

وبهذا الحلول لم تعد الخليقة مجرد **إنسان ومادة**، بل **أصبحت كنيسة**

وأسراراً إلهية!! أي أن الإنسان أصبح عائلة الله وبها أخٌ بكرٌ بين اخوة كثيرين لأب واحد. وأصبحت مادة الكون من مجرد خليقة فانية إلى مجال لحلول الروح القدس يحول خبزها وخمرها إلى مجد الإبن المتجسد ذاته بصورة **جسده ودمه** الأقدسين في القداس الإلهي، حين تطلب منه الكنيسة **بسلطان كهنوت المسيح نفسه**، الذي أعطاه لها، لكي **تربط** وتوحد اللاهوت بالمادة البسيطة وبالإنسان وليد الروح القدس، لنوال النعمة التي أعادها الإبن بتجسده للخليقة التي حقنها بحياته (Life transfusion). وبهذا السلطان نفسه **تحل** الإنسان، إذا اتسخ كيانه بالخطية، من رباطات ظلم الشرير المهلك.

إن **الأسرار الكنسية** في جملتها وعمق معناها، تعيشها وتعلنها الكنيسة الأرثوذكسية على أنها **الكون كله ممجداً** بحلول الله فيه، وتحويله إلى شريك معنا في التجديد والتجلي. إذ أن الله من خلالها يطبع فينا صورة إبنه المتجسد.

هذا **يبدأ بالمعمودية بالماء** التي بها نستلم الروح القدس، لنموت في موت المسيح ونولد الميلاد الجديد، لنصبح آدماً جديداً فيه «نسمة الحياة» التي رفضها الإنسان قديماً وتغرب عن الله. فالمعمودية ليست لمحو ذنب آدم – إذ أننا لا نرثه – بل لتجديد الطبيعة المائتة، حيث قد ورثنا طبيعة الإنسان الخالية من النعمة، كما رأينا في تعليم أثناسيوس الرسولي (تجسد الكلمة). فبحصولنا على الحياة الجديدة، في هذا الميلاد من الماء والروح، يبيد فينا سلطان الموت الذي ورثناه في الطبيعة المحرومة من النعمة – التي رفضها الإنسان بكامل إرادته. لذلك يجب أن يعلن المتقدم للمعمودية (أو

إشبينه) رفض الموت وقبول الحياة بالنعمة، التي تعطيها، بكامل حريته أيضاً. وهذه النعمة ليست قسراً، بل هى قوة كامنة تعمل فيمن يعمل معها وبها بحرية، وتنطفئ إذا لم يشأ الإنسان الحياة بها. هذه النعمة هى عمل الروح القدس فينا، والذي تثبته وتؤكده الكنيسة **بمسحة زيت الميرون** في سر التثبيت. وعمل الروح هذا لا يفارق الإنسان إلى الأبد ولكن قد يرفضه الإنسان بالرغم من تبكيت الروح المستمر للأبد! لذلك إن أخطأ الإنسان – أي انتكس بمرض الخطية بإرادته – يدعوه الروح الحال فيه **لسر التوبة** إن أراد. فإن تاب يقوى فيه روح التبني. وإن لم يتبْ وصمم بكامل إرادته أن يموت متغرباً عن الله، فلن يستطيع التوبة بعد، إذ مضى زمان التوبة، ولا يستطيع الروح القدس إجبار إنسان على التوبة قسراً دون حريته.

هذه هى خطيئة التجديف على الروح القدس، أي التصميم على عدم التوبة والعودة من التغرب من الموت للحياة حتى يلفظ الإنسان أنفاسه، وهو مُصرٌّ على رفض دعوة الروح له بالرجوع وتغيير الذهن، أي التوبة (باليونانية: metanoia أي فكر جديد). لذلك وبسبب احترام الله هذا لحرية الإنسان لا يمكنه غفران هذه الخطية.. فالله ليس السبب، بل هى حرية الإنسان التي بها يختار الموت أو الحياة إن أراد. هكذا أيضاً يظهر بر الله واحترامه للإنسان ولو للأبد.

فكما رأينا رتب الله الأسرار المقدسة ليؤكد لنا أن الكون المادي هو أداة توصيل نعمة خلاصنا أيضاً، وليس هو خليقة نجسة بعد. ليس هذا في هذه الحياة فقط، بل وسيتجلى الكون في القيامة أيضاً حيث يصبح السماء الجديدةوالأرض الجديدة التي رآها يوحنا (رؤ ٢١: ١). ويُعلِّم بذلك المتنيح

الأنبا بيمين قائلاً (في كتابه الرؤية الأرثوذكسية نحو العالم ص ١٦):

«وكما يشير تجلي المسيح إلى قيامة الأجساد في اليوم الأخير، فإنه يشير أيضاً إلى التحول الذي سيتناول الكون كله، ذلك لأنه على جبل طابور لم يتجلَّ وجه المسيح فقط بل سطعت ثيابه أيضاً، إشارة **أن المادة سوف تتجلى أيضاً مع تجلي الإنسان**... وسوف تنال الخليقة المادية أيضاً بعضا مما ناله كاهنها وسيدها... فكما كان التشتت والاضطراب من خلاله، سيكون التجلي والتجدد معه أيضاً».

وهو بذلك أيضاً يردد كلمات معلمنا بولس الرسول: «إن انتظار الخليقة يتوقع استعلان أبناء الله، إذ أُخضعت الخليقة للبُطل، ليس طوعاً بل من أجل الذي أخضعها على الرجاء. لأن الخليقة نفسها أيضاً ستُعتق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله، فإننا نعلم أن كل الخليقة تئن وتتمخض معاً إلى الآن. وليس هكذا فقط، بل نحن الذين لنا باكورة الروح نحن أنفسنا أيضاً نئن في أنفسنا متوقعين التبني فداء أجسادنا» (رو ٨: ١٩– ٢٣). وإذا تساءلت: كيف هذا، وبطرس الرسول قد قال ان في يوم الرب ستزول السموات وستذوب العناصر محترقة (٢ بط ٣: ١٠)؟ أقول لك تذكَّر أيضاً أننا في رقادنا بالجسد ننحل ونذوب، ولكن هذه الأجساد عينها هى التي ستقوم في المجد. فأجسادنا وكذلك مادة الكون بعد أن حل فيها روح الله وتجسد فيها الإبن الكلمة، أُلغى منها – بصورة كامنة منتظرة استعلان المجد – كل سلطان لهذا البُطل (Futility أي فراغ المعنى والقيمة). فهي إن انحلت بالذوبان، إلا أنها فقط ترقد نائمة كما تنحل البذرة عند زراعتها مؤقتاً، حتى تستطيع النمو نباتاً جديداً مجيداً (١ كو ١٥: ٤٢). هكذا الحال بالنسبة

للسماء الجديدة والأرض الجديدة التي صانعها وبارئها الله.

لهذا السبب لا تنظر الكنيسة للماديات على أنها فانيات وترابيات باطلة المعنى، كما نظر إليها الإنسان في العهد القديم (باطل الأباطيل). بل الكنيسة تقدس بالشكر والصلاة كل شئ وتصلي من أجل المياه والأنهار والأمطار بل وتتغنى طالبة «مزاجاً حسناً للهواء!!» وتصلي من أجل كل شجرة مثمرة ونبات الحقل والبهائم وكل خليقة الله المقدسة. وهى إن كانت تهتم بخلاص الإنسان فهي تصلي من أجل بركة غلاتنا ومخازننا ومتاجرنا؛ ومن أجل سياسة العالم، وحكمة الحكام، واقتصاد المجتمع، وشفاء المرض (الغلاء والتضخم الاقتصادي والأوبئة) والنجاة من الحروب (سيف الأعداء). باختصار تضرب الكنيسة كل فكر غنوسي مانوي يحاول أن يدخل إليها، ليوهم أبناءها بنسك أفلاطوني، ويبث فيهم احتقار الحياة وأنشطتها لصالح النسك غير المسيحي، الذي طالما حارب – ولا يزال – كنيسة الله ليشق خليقة الله الحسنة ويوهمنا بأنها لازالت تحت اللعنة. لذلك حرمت الكنيسة في القرن الرابع في مجمع غنغرا كل من حرم الزواج باسم تفضيل البتولية ونجاسة العمل الجنسي، الذي خلقه الله نفسه. وحرمت كل مَنْ نجَّس أي طعام، لأنه عطية وخليقة الله الطاهرة، مؤكدة أن «كل شئ طاهر للطاهرين» (تيطس ١: ١٥).

إن المادة والجسد – بكل أعضائه ووظائفها – والإنسان بكل أنشطته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفنية والرياضية ... مجالات مقدسة يعمل فيها الله إن كنا ندعوه. وليس من فانيات في هذه الحياة إلا الشر والعمل الأناني فقط. بل كل عمل وفكر يكون

مقتضاه المنفعة والخير للإنسان أو الحيوان أو النبات أو حتى البيئة غير الحية، هو عمل مقدس مُسرٌّ لله، ويخدم جسد المسيح بمعناه الواسع، حيث يحمل في ناسوته الكون كله. فالله يُسَرُّ بالطبيب في حجرة العمليات تماماً كما يسر بالكاهن وهو يرفع ذبيحة الافخارستيا على المذبح، إن كان الدافع حب الله والإنسان والكون والخير. فالقداسة ليست في نوع العمل فقط، بل في تحقيق الوصيتين العُظميين – محبة الله والإنسان من كل القلب. وخدمة الخليقة باسم المحبة هى الرحمة التي قد تكون مُسرَّة لله أكثر من الذبيحة. ولكن بسبب أن تراث الكنيسة جُلّه قد كتبه نساك زاهدون – وقد تأثر بعضهم بالنسك الغير مسيحي الذي يحتقر العالم الخيِّر – فقد يبدو لنا من بعض الكتابات أن النشاط الوحيد المسرَّ لله هو العبادة! أو ليس العمل وتعب المحبة هو العبادة في روعتها؟! فلن يدخل ملكوت السموات كل من قال يارب يارب بل من أشبع الجائع (كموظف الحكومة الذي يحرك أوراق هذا الجائع) ومن زار المريض (أي قام بعمل في مستشفى لعلاج المرضى) واهتم بالمسجون (أي دافع عنه في ساحات القضاء وأظهر حقوقه وأنقذه من الظلم) ومن آوى الغريب والضائع (أي ساهم في تأمين معاشه ومسكنه) ... الخ. إننا كثيراً ما نتخيل أن أعمال الخير لابد وأن تعطى في يد المعدمين وصندوق الكنيسة والخدمة القروية، وننسى أن وظائفنا هى حقيقة مجالات البركة لنا ولأخوتنا البشر. إننا بذلك قد نكرس الفقر والاحتياج ولو بصورة غير مباشرة، ونقلل من شأن أنشطة الحياة الحديثة التي هى مجالات الخدمة بمعناها الواسع.

إن ظن المسيحي أن الخدمة هى ما يجري داخل حوائط الكنيسة أو الوعظ خارجها فقط، فقد استقال من دعوته كمسيحي في الحياة، وهو لا

يكرز بسنة الرب المقبولة وحلّ قيود الظلم ورفع القيود عن الفكر وحرية الإنسان. هذا النموذج المسيحي مع الأسف موجود بوفرة، ويشكل أحد أسباب انتشار الإلحاد في العالم. لقد صنعت الكنيسة في روسيا من كارل ماركس نبياً من أنبياء الإلحاد، لأنها شجعت ظلم القياصرة باسم الصبر على الشقاء وترجي ملكوت السموات! ودفع المسيحيون الذي صوروا الله على شاكلتهم – همُّه تقييد فكر وحرية الإنسان باسم النظام والطاعة الذليلة – دفعوا عباقرة أمثال برتراند راسل وچان پول سارتر لإنكار الله باسم حرية الإنسان وانطلاقه وتقدير فكره وانجازاته... مع أن الله هو مصدر وحامي هذه الحرية وانطلاقة الفكر!! ألم يقل الرب أنه قد جاء ليعطينا الحرية والحياة الأفضل والغلبة على الشر والظلم والموت آخر أعدائنا؟!

إن **العمل عند المسيحي هو شركة في تدبير الثالوث**، الذي خلق ولا يزال يعمل ويُجمِّل الكون، ويكمل نضوج الإنسان. يخطئ من يظن أن العمل كان عقوبة للخطية. فالإنسان في الفردوس **كان من واجبه أن يفلّح الأرض ويحرسها قبل السقوط** (تك ٢: ١٥). أما نتيجة السقوط فلم تكن العمل، بل فقدان بهجة العمل وقلة الثمر، بعد أن فقدت البركة من الإنسان الذي رفض نعمة الله في نفسه وفي الكون، الذي خلق لكي يكون كاهناً له (يفلحه ويحرسه ويُسبِّح نيابة عنه).

وإلى جانب دور الكنيسة في العالم من عمل وكرازة وتقديس الكون وأنشطة الحياة كلها، هناك أيضاً حياتها السرائرية مع بعضها البعض ومع عريسها ومخلِّصها. أو بمعنى آخر حياتها كعروس وأمٍّ في الداخل، إلى جانب حياتها العاملة في الخارج. هذا ما نسميه **العبادة وشركة**

القديسين. فالكنيسة بالنسبة للكون كله هى عمود الحق وقاعدته أي مُلْهِمَة الحق والخير والعدالة والنور للعالم، وهي أيضاً في الداخل لحم المسيح وعظامه الحية على الأرض، وموضوع لذته ومسرته وعنايته للأبد. لذا سماها «عروسه المزينة» ليعلمنا قداسة الزواج والجمال في علاقة الرجل والمرأة! فالإنسان في عهد النعمة ليس كما كان يظن داود النبي «دودة» في الأرض بل أصبح في عين الله أعظم من الملائكة، و «شريك الطبيعة الإلهية»! وكما تحولت المادة المقدسة إلى شريك في التجلي والتجديد ومجال لتوصيل النعمة إلى الإنسان، كذلك تعلمنا الكنيسة أن الإنسان أيضاً يحيا في شركة القديسين وله دور في خلاص أخوته بل ومسئولية سيعطي عنها حساباً إن هو أهملها!! فخادم الكنيسة (الأسقف والكاهن) تعلمه الكنيسة أن «من يديك يطلب دمها»، وكل منا «حارس لأخيه» بدلا من قايين الذي استقال من مسئوليته قديماً. من هذا المنطلق تفهم الكنيسة وتعلِّم أهمية **القديسين والشفاعة**. لأنه حيث أننا جسد واحد نفرح معا ونتألم معاً، فإن رقد أحد منا ودخل إلى الرؤية الطوباوية (beatific vision) في كنيسة المنتصرين، فهو أو هي لا تنفصل عن بقية الكنيسة، إنما يواصل صلاته معها ومن أجلها، إذ قد تكمل في البر والإيمان. وبهذا تصبح صلاته أكثر اقتداراً في فعلها وأثرها. فإلهنا إله أحياء وليس إله أموات. بل والكنيسة المجاهدة تصلي من أجل فرح قديسيها المنتقلين أيضاً!!

إن اختلاف الكنائس البروتستانتية الجذري مع الكنائس الرسولية يرجع للرؤية المختلفة لمعنى وحدة الكنيسة ودور المادة المقدسة في خلاصنا. فالمسيحي البروتستانتي يتساءل: لماذا نحتاج لوساطة البشر الأحياء (الكهنوت) أو المنتقلين (شفاعة القديسين) أو لوساطة المادة (الأسرار

المقدسة والجهاد الإنساني) لكي يوصل لنا الروح القدس عمله؟ أليس هو بقادر أن يتعامل معنا مباشرة وبدون وساطة؟ والإجابة هنا تحتاج لدراسة تاريخ الكنيسة وخبرة الأجيال الأولى الحية، لأنها أقرب ما يمكن لكنيسة الرسل وهى بالتالي أصدق شاهد على ما استلمته الكنيسة من الرب مباشرة. فكما رأينا عندما أراد الرب أن يخلصنا أخذ جسداً وجعله واحدا مع لاهوته.. أي استعمل مادة الكون ليصنع الخلاص!! وعندما قابل شاول الطرسوسي، لم يعمده بنفسه ولم يبرأه من العمى، بل أرسله لحنانيا – أي الكنيسة – ليسلمه هذه النعمة بنفس سلطان كهنوت المسيح الذي سلمه مع مفاتيح الملكوت للكنيسة التي هى يداه ورجلاه على الأرض. لذلك فهو لم يدبر خلاصنا بعيداً عنا وعن الخليقة، بل من خلال التجسد، ومن خلال شركة البشر في توصيل الرسالة ونعمة الروح القدس بالأسرار المقدسة، إلى جانب الكرازة بالكلمة وانجيل الفرح. **آه لو أدركنا معاً هذا العمق، وطهارة المادة والإنسان وعظمة اختبار الشركة معاً ومع الله والكون.** أليس هذا هو ما صلى من أجله الرب في صلاته الأخيرة، أن نكون جميعاً (البشر والكون) واحداً فيه كما أنه هو والآب والروح القدس واحد؟ وعندئذ نصير جميعنا واحداً معه في أنشودة أبدية، تتفجر منها السعادة ومعرفة سر الله بلا نهاية (يو ١٧).

كما رأينا، فإن بذرة انشقاق الكنيسة والهرطقات كانت في الفهم الخاطئ لطبيعة المادة والإنسان، وبالتالي علاقة الله بهما. لذلك لن تتحد الكنائس الرسولية (أرثوذكسية وكاثوليكية) مع الكنائس البروتستانتية إلا عندما نقلع جذور هذه الانحرافات نهائياً أي نعي قداسة الخليقة، وكونها كلها مستأهلة أن تكون وسيطة لوحدة الله مع كل عناصرها. عندئذ فقط قد يقبل الجميع

معنى الكهنوت والأسرار ودور القديسين وشركة السمائيين مع الأرضيين. لقد حافظت الكنيسة على العقيدة في نقائها في **الكنائس الأرثوذكسية**، وحافظت على رسالتها نحو العالم ومعاناته في نشاط **الكنيسة الكاثوليكية**، خاصة في القرون الأخيرة. وها هى **الكنائس البروتستانتية** تكشف وتعلن لنا جميعاً عن الفرح والبهجة التي لنا في شخص المخلِّص، والتي كادت تختفي مع محاكم التفتيش وتفسير رسالة الانجيل على أساس القانون والعقوبة، أو مع تعاليم النسك الأفلاطوني التي انتشرت في الشرق. **فهل يا ترى سنتقابل معاً قريباً في شركة المؤمنين (الافخارستيا) على مذبح واحد؟ وهل ستتعلم كل من الثلاث كنائس ما في الآخرين من جمال ونعمة حتى نتحد؟ أم سيمضي الزمن وكل منا يعظِّم ما عنده من اختبار مكتفيا بذاته وحده ومنكراً الحق الذي عند الآخر أيضاً؟**

إن الكنيسة تعاني من مرض الإنشقاق والتشتت مثل العالم. والعالم يقول لها «أيها الطبيب إشف نفسك» أولاً. ويبدو أن العالم قد عرف سر القوة والسعادة في الوحدة، وهو يسعى إليها بخطى واسعة! فهل ستسبقه الكنيسة لتكون نوراً يرى به العالم نور الإيمان؟ نشكر الله على وحدة الكنائس الأرثوذكسية التي تمت جزئياً عام ١٩٨٩ في مؤتمر جنييف. ونحن ننتظر رفع الحرومات وعودة الشركة الكاملة قريباً جداً. وسوف يذكر التاريخ أيضاً جهاد قداسة البابا شنوده الثالث في كتابة الوثيقة التي وقعتها الكنيسة القبطية الأرثوذكسية مع كنيسة روما الكاثوليكية عام ١٩٧٩ عن الاتفاق الجوهري في ادراكنا لطبيعة السيد المسيح (Christological dogma) وهى خطوة للأمام.

خاتمة

هكذا بالفهم المستنير لقداسة الخليقة وعلاقة المحبة العجيبة التي دبرت وحدة الله والإنسان والكون ندرك نعمة الخلق ومشكلة سقوط الإنسان في فشله أن يجمع الخليقة بالحب وطاعة الشركة في حضن الآب. ونفهم لماذا وكيف قام الإبن بصنع الخلاص لنا وللخليقة. وكيف أن الروح القدس يكمل ويجمل هذا العمل طابعاً فينا صورة الإبن لنصير على «شبهه» أو كما في موضع آخر «مثله»، و« شركاء الطبيعة الإلهية »، كما كتب بطرس الرسول بكل جسارة!

فنحن الآن بعد أن تبنانا الإبن الكلمة المتجسد، في لحمه ودمه نسكن في حضن الثالوث بجسدنا وكوننا المادي برمته وللأبد!! أما رحلتنا الآن خلال الزمن فيبهجها الله بنعمته الساكنة فينا محولاً كل أنشطتنا المادية والبيولوجية والاجتماعية والفكرية إلى مجالات لمجد اسمه العظيم القدوس لحين مجيئه، حين يعلن مجده الذي يعطيه لنا عندما يفجر الزمن في الأبدية. حقاً كما قال القديس ايريناوس ومن بعده كل آباء الكنيسة الأرثوذكسية «لقد صار الله إنساناً لكي يصير الإنسان إلهاً فيه»، كما قال القديس ايريناوس ومن بعده كل آباء الأرثوذكسية.

هذا هو الإيمان الأرثوذكسي الذي به نحيا والرجاء الذي عليه نرقد في أرضه الطيبة حتى يقيمنا لنرث المجد معه في حضن أبيه وأبينا للأبد.

آمـين

المراجـــع

١ - الكتاب المقدس - جمعية الكتاب المقدس الشرق الأدنى.

٢ - الخولاجي المقدس - مكتبة المحبة.

٣ - الدسقولية (تعاليم الرسل) اعداد وتقديم د. وليم سليمان قلاده - طبعة أولى ١٩٧٩ وتعليق قداسة البابا شنوده عليها في الطبعة الثانية ١٩٨٩ - الناشر - دار الثقافة.

٤ - سنوات مع أسئلة الناس - الكتاب الرابع - لقداسة البابا شنوده الثالث.

5 - **The Rudder** (of the Orthodox Catholic Church) the compilation of the Holy Canons.
Publisher: The Orthodox Christian Education Society, Illinois, 60613.

6 - **Faith of the Early Fathers** Vol. 1
Publisher: The liturgical press - Minnesota.

7 - **Original Sin According to St. Paul.**
by Rev. J. S. Romanides - St. Vladimir's Seminary Quarterly - Vol. IV 1956. New York.

8 - **On the Incarnation by St. Athanasius..**
Introduction by: C.S. Lewis. تجسد الكلمة
Publisher: Mowbray - London & Oxford.

9 - **Orthodox Theology** - by Vladimir Lossky
Publisher: St. Vladimir Seminary. New York.

10 - **The Mystical Theology of the Eastern Church** by Vladimir Lossky.
Publisher: James Clarke & Col. Ltd., Cambridge.

11 - **The Early Church. by Henry Chadwick**
Publisher: Penguin books - London.

12 - **Reason & Faith. by Foster & Marston**
Publisher: Monarch Publications, Eastbourne Essex. U.K.

13 - **The Meaning of Theology** (essay in Greek Patristics) by Father George Dragas.
Publisher: Darlington Carmel - U.K.

14 - **Women in the Early Church**. by Elizabeth Clark
Publisher: The liturgical press. Minnesota.

15 - **The Sacrament of Love.** by Paul Evdokimov.
Publisher: St. Vladimir's Seminary. New York.

16 - **The Body and Society**. by Peter Brown.
Publisher: Faber and Faber - London.

١٧ – كيف نفهم اليوم قصة آدم وحواء – كوستي بندلي.
منشورات النور – لبنان.

١٨ – الجسد والعفة والحب – چورچ خضر، مطران الروم الأرثوذكس
منشورات النور – لبنان.

١٩ – إله الالحاد المعاصر – كوستي بندلي
منشورات النور – لبنان

٢٠ – مدخل إلى العقيدة المسيحية – كوستي بندلي
منشورات النور – لبنان

٢١ – السبل إلى الله (الله والتطور) – كوستي بندلي
منشورات النور – لبنان

٢٢ – المسيحية والجسد – المتنيح الأنبا بيمين أسقف ملوي – مطرانية ملوي.

٢٣ – الرؤية الأرثوذكسية نحو العالم – المتنيح الأنبا بيمين أسقف ملوي – مطرانية ملوي.

٢٤ – الروحانية الأرثوذكسية – المتنيح الأنبا بيمين أسقف ملوي – مطرانية ملوي.

٢٥ – الجنس والزواج – د. عادل حليم تقديم نيافة الأنبا موسى أسقف الشباب.

٢٦ – ومرة أخرى المرأة – إيريس حبيب المصري – مكتبة المحبة.

٢٧ – المرأة وخلاص العالم – پول افدوكيموف (مترجم) مكتبة المحبة.

٢٨ – الجنس ومعناه الإنساني – كوستي بندلي.

لماذا العفة ؟!

لماذا العفة ؟

+ إرادة الله أم إرادة الإنسان ؟

كثيراً ما فُهمت الأخلاق على أنها مجموعة من الأوامر والنواميس يفرضها مصدر خارج عن كيان الإنسان، سواء كان هذا المصدر إرادة إلهية مفروضة أو مطالب إجتماعية فارغة المعنى في أكثر الأحيان. وقد تسرب هذا المفهوم الناموسى للأخلاق عبر التاريخ إلى الأخلاق المسيحية. أما الأخلاق المسيحية في عمقها فهى كما قال الفيلسوف برجسون: أخلاق منفتحة وإلهام حى. هي إشتياق حميمي خُلق معنا، في قلوب لحمية، في أعماق كياننا، وأُعطى لنا لنحياه بحريتنا نحن. الأخلاق المسيحية هي «برنامج» الكمال الإنساني الذى بموجبه يمكننا تحقيق إنسانيتنا الكاملة، achieve our potential.

إن الوصية الإلهية - التى تشرح لنا هذا البرنامج - ليست أبداً رغبة دكتاتورية في قلب الله ينزلها علينا كصاعقة البرق لإلزامنا بفكره! **إنما الوصية هي كشف الله لنا عن إشتياقات كياننا الداخلى لتحقيق الحالة الفردوسية** التى زرعها الله فينا منذ البدء، ذلك حين خُلِقْنا، ذكرا وأنثى على صورة الثالوث في الحب والشركة. لذلك لا تُفهم إرادة الله حقا

إلا بالتأمل الظمآن إلى الطريق والحق والحياة، وبالغوص الصوفي لأعماق النفس البشرية. هناك فقط نكتشف التطابق الرائع بين إرادة الله وإرادة الإنسان في كمالها. ذلك الكمال المطلق، وإن كان لم يتحقق إلا في شخص الإبن المتجسد فقط، الا أن الروح القدس يطبعه فينا منذ الآن في الأسرار المقدسة وبالإيمان، لنصير مشابهين صورة الإبن ونكون مثله، شركاء الطبيعة الإلهية (أنظر المقالة الأولى).

ولكن عمل نعمة الله هذا لا يدخل إلينا عنوة، ولا يغتصب إرادتنا، ولكنه يطرق باب قلوبنا... فإن قبلناه بل ودعوناه، فإنه يحررنا من الجهل ويحقق فينا «إنسانية المسيح يسوع». وإن رفضناه، يبقى خارجا قارعا يطلب حبنا بحرية!

+ الأخلاق الاجتماعية:

أما الأخلاق الاجتماعية فهى صورة ناقصة مبتورة وسطحية للأخلاق الإنسانية بمعناها العميق - المسيحى. ذلك لأن الإنسان فى حالته المتغربة عن الله فقد المرجع للكمال (القداسة)، لذلك تمنعه أنانيته من إكتشاف أن السعادة الحقة لا تتحقق إلا بالشركة والحب بمشابهة الثالوث القدوس - أي «التألُّه» بالنعمة كما سماه الآباء. وأي أخلاق لا تتخذ الشركة والحب هدفاً، لابد وأن تتعثر ولا ينتج عنها سوى العدم وفراغ المعنى. لأن الناموس الكوني الأدبي يخيِّرنا بين الحياة بالحب والشركة، أو الموت بالأنانية، التى سماها الكتاب «أعمال الجسد» (غلاطية ٥)، والشر

والطبيعة العتيقة.

وتنقسم الأخلاق الإجتماعية إلى التزمت Restrictiveness أو الإباحية Permissiveness. **الأخلاق المتزمتة** (كما في الشرق) تخاف الجنس وتفهمه على أنه غريزة شريرة مدمرة، وبالتالى لا تدرك أن الله قد خلقه ليكون «لغة الحب» بين الرجل والمرأة. لذلك بالتزمت يقتل الشرق الحب كما كان يوئده بالحياة في قتل إناث الأطفال أيام الجاهلية - والتي لازالت حية ترعى. **أما الأخلاق الإباحية** (كما في الغرب) فتدعي، كذبا، الشجاعة وعدم الخوف من الجنس فتقتله أيضا إنما بأسلوب أكثر رقيّاً! فالإباحى يتهالك على الجنس **محوِّلا إياه من لغة للحب إلى ثرثرة لا تشبع**، فهو يستعمل جسده وجسد الآخر كشيء للتلهى والمتعة الأنانية. إنه بهذا المجون «يُشيِيْء» الآخر (أي يجعل الآخر «**شيئاً**» وليس كائناً حياً) بالتهالك الشره على اللذة الأنانية، ضاربا عرض الحائط بالإلتزام الإنساني بالآخر. ذلك الذي يدعو إليه الحب الحقيقي الذي يَعِدُ الحبيب بأن يتعهده للأبد إن أمكن. فالحب الأصيل لا يحده الزمن والمحب حقا يقول لحبيبه:«أنت لن تموت»! ويستطيع بحق أن يَعِدَه ويفي بالوعد. وقد قال نيتشه: **الإنسان يمكن تحديده بمقدرته أن يَعِد** (الجنس ومعناه الإنساني صـ ١١٤). لذلك فنظام المعايشة، بدون إلتزام زوجي واضح، وهو قد انتشر في الغرب (Cohabit)، سببه إنعدام الحب الإنسانى الذى يستطيع أن يعد ويلتزم. من يحيا هكذا، هو إنسان غير قادر على مغامرة الحب والعطاء، شخص يريد أن يبقى لأنانيته خط الرجعة. لقد وصف أندره مالرو هذا الإنسان بأنه: لم يكن يضاجع سوى ذاته أو «جلد» الإنسان الآخر وليس شخصه! إن الإباحية

هي: إستمناء مزدوج بموافقة الطرفين، وإن كان القانون الوضعى يحميه إلا أن الحب الأصيل يتبرأ منه.

والشذوذ الجنسي (إن لم يكن حالة مرضية تحتاج للعلاج) فهو لا يشابه الجنس الإنساني - ولا حتى الحيواني - في شيء سوى إمتهان أعضائه وإنتحال إسمه فقط.

الإنسان المتزمت (رجلاً أو إمرأة) يدعى إحترامه للجنس، ولكن حقيقة لا يرى له هدفا إلا الزواج، لشرعية وقانونية الإنجاب لتوريث الإسم والثروة والخلود الاجتماعى، أو اللذة الأنانية مثل الإباحي. لذلك **فالمرأة عنده ليست إلا مصنعا للأطفال يجب تحديد ملكيته بدقة لضمان سلامة الإنتاج** (ولهذا فقط يريد التأكد من بكارتها يوم الزواج!)، أو جسداً يُشْترى، وبهذا لا تشكّل تحدياً له، إذ هو إنسان عاجز عن الحب سجين «قوقعة أناه» الطفولية.

إن الإباحية والتزمت وجهان لعملة مزيفة واحدة قد سكّها الإنسان بفشله الذريع أن يكتشف معنى الحب والشركة. ذلك الحب الذى هو إرادة الله فينا واشتياقنا نحن لتحقيق السعادة الحقيقية بنعمة الجنس الموهوبة لنا لتأصيل الحب وتعميقه في الإنسان. **الإباحية تقتل الحب بإسم الحرية الأنانية غير الملتزمة والتى لا تمانع من أن تسقي الإنسان أي سُمٍّ مميت، إن كان لذيذ الطعم. والتزمُّت يقتل الحب بِكَتْم أنفاسه بإسم الأخلاق والتديُّن المريض.**

لذلك فالأخلاق الإجتماعية قد أضاعت كل طعم وجمال للعفة. فالإباحية ألغت العفة من قاموسها كلية، والتزمُّت دفع الشباب أن يتشكك في الحاجة إليها. في الماضى كان من الممكن تربية العفة المتزمتة بالتخويف من المرض، والحمل سفاحاً، والعار، والرفض الإجتماعي الذي يؤدي لعدم زواج البنت وبالتالي ضياعها إجتماعيا وإقتصاديا... والكثير من التحريمات الأخرى. أما الآن فبالتقدم العلمى والاجتماعى وبعمل المرأة وقدرتها على كسب الرزق، فقد إنقشع شبح هذه الأكاذيب والمخاوف فلم يتبقَّ سبب كافٍ لتربية العفة على أسس إجتماعية. أضف إلى ذلك هجرة الشرقيين إلى الغرب بما حمله عقلهم الباطن من تزمت إجتماعي، فأصبحت الصورة مرعبة لمن لا يعرف سبباً إنسانياً وروحياً كافياً لإقتناع أبنائه بأهمية العفة. فالآباء والأمهات إن لم يكن عندهم رصيد كبير من الحكمة والفهم الإنساني الدارس الواعى، بالإضافة إلى الإختبار الروحى الصادق فإنه لن يمكنهم صدُّ تيار الإباحية الغربية عن أبنائهم.

ولكن ليست الصورة فى الغرب كلها ظلمة قطعاً. فالحرية نفسها سلاح ذو حدين، فهي تمكننا من تربية أبنائنا على قوة الشخصية والتحدي الحر للإباحية، هذا إن عرفنا كيف نشرح لهم جمال العفة الإنساني وأنها أساسا إحتياج شخصي ليعدوا أنفسهم للحب، لا للخضوع الأعمى لأوامر دكتاتورية مصدرها الآباء والأمهات والمجتمع.

وبسبب هذه الإيجابية التى للحرية، تزداد كل يوم فى الغرب والشرق على السواء حركات تحرر المرأة والمطالبة بعودة الجنس إلى إنسانيته

وإحترام الكرامة العائلية. ومن أنشط الدعاة لوقف **تجارة الجنس المنشور** (Pornography) فى المجلات أو الأفلام، السيدة Dwarkin فى أمريكا وهى ترى أن تجارة الجنس المنشورة هذه، أشنع من الدعارة القديمة، إذ لا تمتهن المرأة فيها مرة واحدة، بل آلاف المرات بطبع ونسخ صورها والأفلام المهينة لكرامة الجنس والأسرة، لا لشيء إلا لجمع الثروات وأموال الدماء (Blood money). والدليل على نجاح نشاطها هى وآخرين، أنها تتلقى يوميا خطابات التهديد بالقتل من القوّادين أصحاب دور النشر الماجنة فى كل مدينة تسافر لتحاضر فيها.

+ العفة قبل الزواج:

كثيراً ما تستعمل البكارة أى العذرية (virginity) بمعنى العفة (Chastity) أو حتى البتولية (Celibacy). ولكن المعاني تختلف كثيراً. فالبكارة تعني حالة إنعدام الخبرة الجنسية من الناحية الجسمية فقط خاصة فى الفتيات. ولكنها تستعمل أحياناً بمعنى العفة. إلا أن العفة تستمر أيضا بعد الزواج ولكن بدون البكارة. أما البتولية فهى حالة خاصة يُكرَّس فيها الجنس ويتسامى، لتتزوج النفس العريس السمائي مباشرة.

العفة الإنسانية الحقة (وهى المسيحية أيضا) هي توظيف الجنس الإنساني وإستعماله كوسيلة ولغة للحب والشركة بين الرجل والمرأة في إلتزام يدوم مدي الحياة، وهذا ما يُعْرَف بالزواج. هذا الفهم والتعريف قد يوافق عليه الإنسان الجادُّ فى إنسانيته مهما كان دينه أو فلسفته. فيندر من ينكر إرتباط الجنس بالحب، ولكن هناك من يفهم الحب على أنه حب نفسه، أو إشتياقه الغريزي العضوي للذته المنفردة (شهوة). وهناك من يسيء فهم الحب الإنساني، ولا يستطيع إدراك أن **العلاقات الإنسانية في كمالها لا يمكن تحديدها زمنيا**، بأن يقول المحب لحبيبته مثلاً: سأحبك وأعدك بذلك لمدة أربع سنوات قابلة للتجديد!! فالحب والصداقة الحقة يحويان الزمن كله والأبدية أيضا. ومن هنا قيل أن **الحب هو رغبة إتحاد لانهائى مطلق**.. إنه بنوع ما متطلب ديني عميق في الإنسان، ويحتاج لإيمان ومغامرة يلقى فيها

الإنسان بوعده بنفسه بدون ضمانات! ولعل هذا سبب نشوء ديانات الجنس قديما... إنها سعيٌ أخطأ طريقه إلى المطلق من خلال الجنس.

ولكن للأسف تُفْهم العفة وتُعلَّم حتى الآن بالرجوع إلى مصدرها اللغوى (لا الإنسانى): عفَّ عن الشيء أي إمتنع عنه.

وهذا الفهم المتزمت غير الإنساني، يرجع لقصورنا في إدراك معنى الحب الزيجي (أي الحب الجنسي الملتزم مدى الحياة)، ولقصورنا في إدراك أن **الله هو خالق الجنس ومُريده ومُباركه:** «وقال الرب الإله **ليس جيدا** أن يكون آدم وحده. فأصنع له **معينا نظيره**... هذه تدعى إمرأة لأنها من إمرء أُخذَت. لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بإمرأته ويكونان جسدا واحدا» (تك ٢: ١٨، ٢٣ - ٢٤). «فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. **ذكراً وأنثى خلقهم وباركهم الله** وقال لهم **أثمروا وأكثروا** وإملأوا الأرض وأخضعوها...» (تك ١: ٢٧ - ٢٨).

وهناك فارق كبير بين فهم العفة وإختبارها كنشاط سلبى همُّه **الكبت** والإنغلاق العاطفى نحو الجنس الآخر، وبين فهم العفة واختبارها كنشاط إيجابى، يستعمل **الضبط** كتدريب إنساني للحفاظ على الأصالة الجنسية والزخم العاطفى حتى يهديه الحبيب لحبيبه حبا بكرا جديدا يوم الزواج، لذا لا يفرط فيه بل يكنزه بوعي وحكمة. **فالكبت** (Repression) هو عملية لاشعورية يلدها الخوف من الجنس، فيها تُحبس الطاقة الجنسية والقدرة على الحب والإنفتاح نحو الجنس الآخر في اللاشعور. فبدلا من أن يقوم صراع شعوري بين الرغبة والذات (Ego)، يفر الذات فتظل الرغبة قائمة بكامل

عنفوانها ولكن بعيدا عن متناول الشعور. الكبت هو صراع نفسى عجز الأنا (Ego) عن مواجهته، فتجاهله، فلاذ بأعماق اللاشعور (subconscious). الكبت هو «**التهرب من مشكلة**» كما وصفه فرويد، أب التحليل النفسى (الجنس ومعناه الإنساني صـ ٢٢٤). المكبوتون أناس يرتاعون لمجرد ذكر الجنس في حديث يسمعونه أو كتاب يقرأونه. وقد تتشكل عندهم قناعة بأن هذه ذروة العفة المرهفة!

أما الضبط (selfcontrol) في العفة الحقة فليس هو خوفا بل تعهدا واعيا للجنس وإتجاها أصيلا للآخر يتفهمه ويحترمه ويعامله كإنسان على صورة الله بما فيه من جمال وجاذبية لا يتجاهلها. بذلك تكون العفة المنضبطة صادرة عن إقتناع لا تبعية جبانة لقوانين خارجة عن شعور الإنسان. العفيف يفهم ويعيش «**الإعلاء والتسامى**» بالغريزة (sublimation) بحرية وهو في كامل شعوره.

لقد وصف فرويد هذا التسامي على أنه مقدرة النزعة الجنسية على التحول دون أن تفقد قوتها. فهذه الطاقة نفسها هي التي تصنع بالتسامي النبوغ الرياضي والفني والفكري والاجتماعي، بل وهي نفسها التي تخصب الحياة الروحية. فالكبت الجنسي إذن يضعف الشخصية كلها. لذلك قال مار إسحق السرياني: «يارب أعطنا أن نحبك بقوة أهوائنا». ويوحنا السلمى يقول عن الزانية التائبة أنها «تمكنت أن تدفع عشقاً بعشق». وقد قال تياردى شاردين الراهب والعالم الكاثوليكى: «الحب هو أكثر الطاقات الكونية شمولا وغموضا... سيأتى يوم نتوصل فيه بعد تسخيرنا الأثير والرياح والمد والجاذبية، أن نسخِّر من أجل الله طاقات الحب. عند ذاك وللمرة الثانية في

تاريخ العالم يكون الإنسان قد وجد النار». (الجنس ومعناه الإنساني صـ ٢٤٤).

العفة إذن هى: الإخلاص الزوجي قبل وبعد الزواج.

. Premarital and postmarital fidelity

فالعفيف يعلم أنه منذ ولادته يُعدُّ لكى يكون حبيبا، زوجا أو زوجة. لذا يقبل خوض الكفاح الجسمي في النمو، والنفسي والروحي في تعلم البذل، والفكري في الدراسة، ليؤهل لخدمة الحياة وكسب الرزق. إنه بهذا كله يحب شريك حياته حتى قبل أن يلتقيا! وما العفة المنضبطة إلا إكتناز الحب وتعهده الواعى، حبا وإشتياقا وإستعدادا بطوليا للقاء الحبيب، الذى من خلف ستار الزمان والمكان يشاركه، منذ الولادة أيضا، هذا الشغف نحو لقاء الحب والشركة في الزواج: «ناموس الفرح»، كما تسميه الكنيسة عروس الختن الحقيقي. وبما أن الهدية في جمالها تكون جديدة غالية الثمن، لتعبر عن مركز صاحبها ومن تقدم إليه، كذلك يكون الجسد العفيف جديدا بكرا (Brandnew, not secondhand). ولذا أيضا وجد تقليد الخاتم الماسي ذو الفص الواحد (Solitaire) بلا خدش ولا عيب، ليصف عفة الحبيب المقدِّم والمقدَّم له. والثوب الأبيض (بحجاب الوجه إن وجد) إنما يحكي نفس القصة. فكما يتعرض الماس الكريم لكل الضغوط والحرارة مع الزمن ويبقى للأبد بريقه، هكذا الجسد العفيف في هذا الزمن والأبدية. إن عفة الزوج والزوجة يوم الزفاف هي أصدق شهادة على الحب المكافح الصابر وأصدق وعد بالإخلاص الزوجي مدى الحياة. الحفاظ على العفة، إذن، تفهم من منظار الإخلاص والوفاء للحب، وليس كمطلب إجتماعي.

+ تربيـة العفـة:

أما تربية العفة **فتبدأ منذ الطفولة**، حينما يرى الطفل حب والديه له ولبعضهم البعض. وعندما يرى قبلة الحب بين والديه، تترسخ في مشاعره أيضا قداسة التعبير الجسدي عن الحب، على أن يكون الشرط هو التعبير بالقدر الذي يمكن أن يشارك فيه الطفل وليس أكثر، (Raising positive kids - by Zig Ziglar). ثم متى بدأ الطفل يسأل عن ولادة الأطفال أو إختلاف أعضائه عن أخته **حوالى سن الخامسة**، يكون على إستعداد لقبول مباديء الثقافة الجنسية من الناحية التشريحية والفسيولوجية. والتناسل في النباتات أو في الطيور وسيلة إيضاح مناسبة يمكن إستعمالها. وعند سن الثامنة هناك أيضا وسيلة إيضاح أخرى يتعمد الأهل أحيانا تجاهلها، وهي بعض المناظر العاطفية المناسبة في التلفزيون أو الحياة اليومية في الشارع (هنا في الغرب) من نظرة حب أو قبلة مناسبة أو تضحية حبيب من أجل حبيبه... إلخ. هذه كلها يمكن إستعمالها لتعليم الطفل أن هذه التعبيرات هي ما يسمع إسمه ويقرأه في الجرائد اليومية: الجنس sex. والطفل حوالى الثامنة من عمره قد يسأل: ما هو الجنس هذا الذي يتحدثون عنه ولماذا يُقبِّل الحبيبان بعضهما البعض هكذا؟ وفي رأيي أن محاولة تجاهل السؤال هنا جريمة في حق الطفل لأنه يربط بين الجنس والغموض والظلمة. ويمكن في هذا الوقت شرح تعريف مبسط أن الجنس هو هذه القبلات بين الحبيبين، وقد رتبه الله لكي يعبِّر به الأب والأم لبعض عن حبهما. هو، إذا، نشاط جميل مقدس ومقبول إن كان بين الزوج والزوجة فقط. والتعليم الأخلاقي عن الجنس يجب أن يلازم التعليم العلمي التشريحي الفسيولوجي حتى تتوازن الصورة.

وبذلك يدرك الطفل أن الممارسة الجنسية هى والأخلاق الجنسية والحب والزواج موضوع واحد متكامل، وهو غاية في القداسة والطهارة وقد خلقه وأراده الله نفسه. بهذا يبدأ الطفل احترامه لجسده ولمشاعر الحب والتعبير عنها.

ومتى وصل الطفل إلى **سن العاشرة**، يُفضَّل جدا شرح التفاصيل الباقية عن الجنس الإنساني حسب قدرة الطفل على الإستيعاب ورغبته في السؤال. وعامة يكون الطفل في هذه السن قد سمع كثيرا (خاصة هنا في الغرب) وفهم كثيرا عن الجنس. لذلك يجب أن يضع الأهل بأنفسهم النقط على الحروف، لئلا ينقطع خيط الثقة الذي كان قد تربى منذ السنين الأولى، والذي يحتاج أن يتقوى بشدة الآن ليتأكد الطفل قبل دخوله مرحلة المراهقة من وجود حضن أبوي وقلب واسع لقبول تساؤلاته، ومساعدته على فهم تلك الطاقة الجديدة التي لم يختبرها بنفسه بعد.

والتعليم الجنسي قبل الدخول إلى فترة المراهقة هام وضروري للغاية:

أولاً: لأن الطفل غالبا ما يكون قد **سأل بنفسه**، وإستجابة الأهل بالصراحة والموضوعية يترتب عليها ثقته فيهم في فترة المراهقة بل وبقية العمر.

ثانياً: الطفل قبل سن المراهقة **لا يُستثار بالمعلومات الجنسية** كما قد يظن البعض، ويقبلها بسهولة وبموضوعية كحقائق علمية تُحترم ومفاهيم مقدسة طاهرة.

ثالثاً: إن لم يجد الطفل الإجابة فى الأسرة سيطلبها في المدرسة، وقد

تُعطى مشوهة أو على أحسن الأحوال ينقصها الجانب الأخلاقي. فالمدارس هنا في الغرب تعلم الثقافة الجنسية كحقائق علمية لا كنشاط إنساني أخلاقي روحي متكامل. وتركز على ما يهم المجتمع فقط من جهة الأخلاق الإجتماعية كما ذكرت. فتُعلم الطفل كيف يتجنب الحمل الغير مرغوب فيه أو الأمراض، ولكن لا تعلمه إرتباط الحب بالإلتزام والزواج والحياة ككل. بل وقد تعلمه أن الجنسية المثلية (الشذوذ الجنسي) هو نوع طبيعي آخر من الجنس!!

رابعاً: إن أردنا **تحصين أبنائنا ضد الإعتداء الجنسي** عليهم، علينا أن نحميهم من الجهل الجنسي منذ سن مبكرة، وأعتقد أن الطفل منذ الرابعة أو الخامسة يجب أن يُحذَّر من وجود من قد يحاولون العبث بجسمه، وأنه لا يجب أن يسمح لأحد بكشف ولمس أعضائه الداخلية بدون وجود الوالدين أثناء الكشف. أما من سن العاشرة، فالتحصين ليس فقط ضد الغير وإنما ضد محاولتهم هم الدخول في **مغامرات صبيانية مع رفقائهم**، والتي قد تقود إلى الجنسية المثلية في بعض الأحيان. والتعليم هنا يجب أن يكون من منطلق قدسية الجسد والحب والعفة، وأن الطهارة هي من أجل الإنسان نفسه وليست إستجابة لقوانين خارجية مهما كان مصدرها. وذلك في غاية الأهمية، لأن المراهق قد يخطيء فهم النصيحة الدينية على أنها دكتاتورية وقهر إلهى، فيتعثر في نموه النفسي والروحي. والحق يقال أن الكثير من الآباء - بسبب الجهل - يستعملون أكثر الطرق سهولة وأقصرها، لمنع المراهق من العلاقات الجنسية. فيرهبونه بغضب الله وعقوبته (راجع المقالة الأولى عن هذه المفاهيم) لأنهم لا يعلمون كيف يقنعونه بأهمية العفة. قد ينجح هذا الإرهاب إلى حين، ولكنه يرسِّب عداوة بين الله

والإنسان قد تستمر مدى الحياة، بل وقد تُسلَّم من جيل إلى جيل، وقد ينبت عنها إلحاد مستتر بصورة تديُّن سطحي، أو إلحاد ومقاومة مُعلَنة لله في حالات الشخصيات القيادية التي تثور على الإرهاب.

وإختلاط الجنسين نشاط ضروري ومرغوب فيه، وذلك لأن في هذا الوسط يستطيع المراهق أن يتعلم الكثير عن مشاعر الجنس الآخر، ويكتشف كيف يقبل نفسه والآخر وكيف يتعامل معه، بالحب لا العشق، كإنسان لا مجرد صورة أو جسد يُشتهى. وإجتماعات الشباب والأندية في الكنائس والمراكز الثقافية مجال مناسب لهذا الإختلاط، في وجود مرشدين وقادة للشباب يكون لهم دورهم في التوجيه وتنظيم الأنشطة وجلسات الحوار والمسابقات الرياضية والثقافية، التى تصبح مجالا للتسامي بالدافع الجنسي وتربيته الصحية. ومثل كل تجربة إنسانية فهناك إحتمال الخطأ. وهذا يجب أن يتوقعه المرشدون ولا يحاولون تجنب الخطأ (مثل العلاقات الرومانسية للمراهقين أو مضايقة بعضهم للبعض الآخر أحيانا) بإلغاء الإختلاط أو تحول المرشد إلى مخبر بوليسي لفقدانه الثقة ببعض أعضاء المجموعة! وعموما فإن نجاح الإختلاط بالإرشاد الحكيم يجعل من المجموعة نفسها المربي والضامن لإستقامة سلوك من يصعب تقويمهم. ويجب أيضا على المرشد الناضج المحب (خادم الشباب) أن يكون صبوراً، متفهما أن هناك البعض ممن تعثروا أثناء طفولتهم ولهم مشكلات قد يطول حلها. ووجود متخصصين نفسيين ضمن المرشدين هو مكسب كبير وعامل مساعد للنجاح.

ويجب إشعار المراهقين أن الهدف هو نضوجهم وسعادتهم هم، وليس

محاولة التسلط عليهم. لذلك، يجب أن يكون الحوار بين المرشدين والشباب عموما طريقاً مزدوجا فيه الأخذ والعطاء من الجانبين. والحق يقال أن إكتساب الخبرة والنضوج الناتج، ليس فقط من جهة الشباب، بل هم أيضا يعلمون مرشديهم الكثير عن فن الحياة والمشاركة.

هكذا نرى أنه إذا تربى الجنس والعفة تربية إنسانية روحية سليمة كان سلما نحو الفضائل ونارا تشعل فينا الحب للآخر والله نفسه.

+ العفة في الزواج:

قال الرسل الأطهار في الدسقولية «**الزواج جُعِلَ عفة**».

أي أن فيه تتحقق كل أهداف الجنس الإنساني بحسب إرادة الله الأبوية لنا وفينا. وعندما اتأمل في الخلق كطبيب جراح وزوج، لا يسعنى إلا تمجيد الخالق على حسن وروعة تصميم الجنس الإنساني من الناحية التشريحية والفسيولوجية (وظائف أعضائه) والتجاذب النفسي والجسمي والروحي الذي يحتمه الجنس في الرجل والمرأة. لهذا إستعمل الكتاب تعبير: «... **لذلك**، يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بإمرأته» (تك ٢: ٢٤). وفى محاضرة ألقاها كوستي بندلي في المعسكر المسكوني للشباب بالإسكندرية ١٩٧٢ قال: إن الجنس في الإنسان ليس فقط موضوعا عضويا جزئيا إنما خلقه الله ممثلا في كل خلية إنسانية بصورة كروموزومات XY في الرجل و XX في المرأة. لذلك فالرجولة والأنوثة تملأ كيان الرجل والمرأة - كهدف إلهي - حتى نخاع كل خلية! وكما رأينا فإن طاقة الجنس الإنساني

(Libido) هي نفسها التي بالتسامي الواعي تُشبِع الشخصية الإنسانية بكل خصوبة في جميع المجالات الروحية والإجتماعية والفنية والرياضية. إن كُلاً منا مولود، لكي يكون على مثال الآب السماوي، أباً أو أماً، ليلد أبناءً للملكوت السماوي، إما بالزواج أو بالبتولية - كما ولد بولس الرسول وآلاف البتوليون أبناءً بل وكنائس على مر الزمان.

لقد كان في قدرة الله أن يخلقنا، مثل الملائكة، كلنا مرة واحدة بدون الحاجة إلى الحب والزواج والتناسل. ولكن الملائكة ليسوا على شبه الله ومثاله كما الإنسان! ولكي يعلمنا الثالوث القدوس كيف يوحد الحب أقانيما (متميزة في الصفات) في جوهر وطبيعة واحدة، خلقنا وفينا هذا التميز الجنسي. فالإنسان عندما خُلق «ذكرا وأنثى» يتكلم عنه الكتاب على أنه إنسان واحد بالمفرد، أو الجنس البشرى كله بالجمع (لأن لفظة «آدم» بالعبرية كما قال أوريجانس لا تعني إنسانا واحدا بل الجنس البشري كله): «فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله **خلقه**، ذكرا وأنثى **خلقهم، وباركهم** الله وقال **لهم** إثمروا وإكثروا وإملأوا الأرض» (تك ١: ٢٧ - ٢٨). ولم يستعمل الكتاب صفة المثني - كما في مواضع أخرى! وعن هذا أيضا يقول القديس كيرلس السكندري: «لقد خلق الله الكينونة معا». ويقول يوحنا ذهبي الفم: «عندما يتحد الزوج والزوجة في الزواج، لا يظهران بعد كشيء أرضي بل كصورة الله نفسه». (الجنس ومعناه الإنساني صـ ٣٣٢).

فالتميز الجنسي الذي يخلق التجاذب للحب والزواج هو بمثابة «طُعمٌ في سنارة» التدبير الإلهي لتكميل أنفس الملكوت. تخيلوا معي عالمنا لو كنا كلنا

جنسا واحدا أو، لا جنسيين!! كيف كانت عروس المسيح (الكنيسة) ستكتمل وتصل إلى ملء قامة المسيح - تلك التي كما قال عنها المتنيح الأنبا بيمين: لا نصلها كأفراد بل ككنيسة متكاملة الأعضاء.

لذلك **فالعفة في الزواج لا تُفهم إنجيليا على أنها «الإمتناع» أو الإنقطاع عن المعاشرة الزوجية، بل هى التعبير الدائم بالعطاء الجسمي والنفسي من الزوج لزوجته ومن الزوجة لزوجها**، بدون أن يمنع أيٌّ منهما نفسه عن الآخر، كما علم بولس الرسول.

ودراسة آراء بولس الرسول عن الزواج وعلاقة الزوج والزوجة في غاية الأهمية. وهي تضرب كل مفهوم غنوسي مانوي يحاول أن يُدخل إلى الزواج نسكاً غير مسيحي. ولفهم تعليم بولس الرسول فى (١ كو ٧)، يتحتم أن ندرك سبب كتابة هذا الإصحاح، وذلك يتضح في الفقرة الأولى من الإصحاح: «وأما من جهة الأمور التي كتبتم لي عنها، فحسن للرجل ألا يمس إمرأة». ويبدو من القراءة السريعة لهذه الكلمات أن بولس الرسول يفضل الإمتناع عن الجنس كلية!! إلا أن الترجمات الإنجليزية توضح أن العكس هو الصحيح، كما يوضحه بقية الإصحاح. فنسخة (N. K. J.) New King James تقول:

"Now concerning the things of which you wrote to me: (It is) good for a man not to touch a woman".

وفي نسخة (G. N. B.) Godd News Bible الكاثوليكية:

"Now to deal with the matters you wrote about. A man does well not to marry".

وفي الهامش مكتوب إحتمال آخر للترجمة:

"**You Say** that a man does well not to marry".

من هذا يتضح أن النقطتين(:) قد وضعتا في نسخة N. K. J. ليشرحا ما وضحته نسخة G. N. B. فى الهامش، وهو موضوع في غاية الأهمية. **إن عبارة: «حسن للرجل ألا يمس إمرأة»، لا تمثل رأي بولس الرسول كما يعلم البعض، بل هي رأي أهل كورينثوس.** وقد بدأ بولس الرسول بها الإصحاح ليشرح لهم أنه قد خصص هذا الجزء من الرسالة للتعليق والإجابة على هذا الرأي، الذي كانوا قد أرسلوه له كسؤال مسبق كما قال. وأيضا في نسخة N. K. J. تبدأ العبارة بعد النقطتين بـ It is وهى مكتوبة بالخط الرفيع italics، وفى بداية النسخة مكتوب أن الكلمات المكتوبة هكذا، هي إضافات إنجليزية ضرورية لتوضيح معانٍ ضمنية في اللغة الأصلية تصعب ترجمتها حرفيا، أي أنها غير موجودة أصلا. فبولس الرسول لم يقل أن رأيه هو أنه حسن للرجل ألا يمس إمرأة، بل الترجمة الأخرى المحتملة (ويبدو من سياق الحديث أنها أصح):

«وأما من جهة الأمور التى كتبتم لى عنها **(أنتم تقولون)**: حسن للرجل ألا يمس إمرأة» ويكمل بولس الرسول:

«**ولكن**..... ليوف الرجل المرأة حقها الواجب وكذلك المرأة أيضا الرجل. ليس للمرأة تسلط على جسدها بل للرجل وكذلك الرجل أيضا ليس

له تسلط على جسده بل للمرأة. **لا يسلب أحدكم الآخر** إلا أن يكون على **موافقة إلى حين** لكي تتفرغوا للصوم والصلاة ثم تجتمعوا أيضا معا لكي لا يجربكم الشيطان لسبب عدم نزاهتكم. ولكن **أقول هذا (أى الانقطاع المؤقت المشروط) على سبيل الإذن لا على سبيل الأمر.** لأنى أريد أن يكون جميع الناس كما أنا ولكن لكل واحد موهبته الخاصة من الله». (١ كو ٧: ١ - ٧) - (أنظر معنى كما أنا في فصل العفة في البتولية).

واضح إذن أن السؤال كان بسبب انتشار الفكر الغنوسي الذي كان يعلم بنجاسة الجنس حتى في الزواج، وكان منتشراً بشدة في الحضارة اليونانية. لذلك يبدو أنهم كانوا قد أرسلوا هذا السؤال لأن منهم من كان ينادي بإمتناع الأزواج عن بعض، أو أن بعض الأزواج (أو الزوجات) المنضمين للإيمان كان يستنجس هذه العلاقة، ويحاول التحجج بالنسك للإمتناع الكلي أو لفترات طويلة، بسبب التأثر بالفكر الغنوسي المتفشي آنذاك والذي كان يعلم أن البراءة الجنسية في حد ذاتها هي العفة. لذلك يؤكد بولس الرسول أن الوضع الطبيعي في الزواج هو ألا يمتنع أي من الزوجين عن معاشرة الآخر لئلا يدفعه للزنا. وذلك كرد صريح على هرطقة الغنوسية التي كان يحاربها بشدة كما فى قوله عنهم أنهم: «يرتد قوم عن الإيمان تابعين أرواحاً مُضلَّة وتعاليم شياطين في رياء أقوال كاذبة موسومة ضمائرهم مانعين عن الزواج وآمرين أن يمتنع عن أطعمة قد خلقها الله لتتناول بالشكر من المؤمنين» (١ تيموثاؤس ٤: ١ - ٣). وأيضا معروف أن بولس الرسول قد قال: «ليكن الزواج مُكرَّماً عند كل واحد والمضجع غير نجس» (عب ١٣: ٤). ويوحنا ذهبي الفم يعلق على قمة تعاليم بولس الرسول عن الزواج: «بالتأكيد لو كان الزواج مُداناً لما كان القديس بولس يدعو المسيح والكنيسة عريسا وعروسا!»

(In Eph. hom. 20).

أما الإمتناع - أو بالأحرى الإنقطاع الوقتي - من أجل التفرغ للعبادة في الصوم والصلاة فهو الحالة الوحيدة التي «**سمح**» بها بولس الرسول ولكن بشروط، لئلا يترك مكانا أو حجة لفكر الغنوسية في عقول الكورينثوسيين. ويؤكد أن هذا سماحاً وإذناً وليس على سبيل الأمر. وأما الشروط فهي أن يكون الإنقطاع: **بموافقة الزوجين معا ولمدة محددة**. ويبدو أيضا أنه لم يكن يتكلم عن فترات قصيرة في الأساس، بل على الإنقطاع من أجل **التفرغ لنوع من الخلوة الخاصة**. وذلك لأن المسيحي إنسان «يصلي كل حين»، ولو كانت الصلاة الدائمة لا تتفق مع المعاشرة الزوجية، لكان الإنقطاع أمراً دائماً! ولما كتب الرسل في الدسقولية: «الزواج جِعل عفة» و«لا نتشيطن في وجود إختلاط الزواج الناموسي.. لأنه من قِبل تدبير الله صارت شركة الرجل والمرأة» و«إن الرجل والمرأة إذا عرفا بعضهما بعضا في الزواج الناموسي وقاما من مضجعهما فلا يحرصا على الإستحمام (الطقسي) **بل ليصليا ولا يستحما لأنهما طاهران**» و«تتنجس النفس من جهة النفاق وحده على الله ومخالفة الناموس... لأجل هذا إبعدوا من الإحتراسات التي قلناها وإهربوا منها لأنها من أعمال الوثنيين... وباطلة بلا طائل وعدم فهم لرجال جهال». وتضيف النسخة السريانية: «إذا كنت بحسب التثنية تغتسل بعد فيض أو بعد علاقات زوجية، فيجب عليك أن تغتسل إذا سرت فوق فأر»! (الباب ٣٣).

إن **ما يجعل الزنا شرا** ليس العمل الجنسي ذاته بين الزناة، لأنه من جهة التدبير الطبيعي (التشريحي والفيسيولوجي) هو نشاط من تدبير الله

نفسه. ولكن شر الزنا - أو أي إنحراف جنسي عموما حتى بالفكر - **هو في عدم الإلتزام الزوجي وإحترام الإنسان لجسده وجسد الإنسان الآخر**. لأن هذا الموقف يشكل إهانة للنظام الكوني (الناموس الطبيعي) الذي يشكل إشتياق الإنسان نحو الكمال، المرموز له بالحالة الفردوسية للإنسان (تك ١ - ٣). وهو بذلك إهانة وتدمير وإفساد لكيان الإنسان العظيم «شبيه الله». والله لا يغضب على الزناة، لأنهم أهانوه أو أغاظوه، حاشا. إنما «يحزن» على الخاطيء - إن صح التعبير لأن محبة الله ليست كعواطف البشر - كحزن الأب على إبنه إن شرب سُمّاً مميتاً. والإصحاح ٢٢ في سفر التثنية يشير إلى هذا المعنى (أن خطية الزنا هي في عدم الإلتزام أساساً) في تلميح أخلاقي بديع. فالزناة المتزوجون كانوا يرجمون، أما إن كان الطرفان غير متزوجين، فكانت عقوبتهما هي الزواج مدى الحياة بدون طلاق، بالرغم من أن الطلاق كان مسموحا به أيام شريعة الناموس!

لذلك كما قلت، فالعفة في الزواج بحسب تعبير بولس الرسول هي «ألا يسلب أحدكم الآخر» أي إستعمال الجنس كلغة الحب للحفاظ عليه وتعميقه. والإنقطاع المؤقت يجب تقييمه كأحد التدريبات الروحية الإنسانية التي تساعد الأزواج على الحفاظ على طهارتهم لو إضطرتهم الحياة (بسبب المرض أو الإفتراق لسفر أحدهم) أن يضبطوا رغباتهم لفترات قد تطول أو تقصر. **ولا يجب تقييم هذا الإنقطاع على أنه هو بذاته «التعفف» في الزواج**، كما لو كانت المعاشرة الجنسية أقل تعففاً، أو كما لو كانت المعاشرة والعبادة نشاطين متضادين يستحيل جمعهما معا. هذا فكر غنوسي غير إنجيلي، وبحسب تعبير يوحنا ذهبي الفم هو «إدانة لله الذي سنّ هذه الأمور» (In Colos. hom. 12). وقد رفضه الرسل في الدسقولية.

وأما الكنيسة المجيدة فقد عظمت الزواج وذلك حسب منهج الرب نفسه في حديثه عن الزواج، وكما علم بولس الرسول. فأطلقت عليه: «إكليل الزواج... ناموس الأفضال... شريعة الكمال...». وتصلي للعروسين: «**بالمجد والكرامة كلّلهما**»، والمجد بلغة الكتاب هو بهاء الحضور الإلهي، حضور الروح القدس الذي يحيي الخليقة، ويوحد الأشخاص ويحرس مضجعهما طاهراً بالحب، في معاشرة تسميها الكنيسة «ناموس الفرح». وعندما أتأمل في ركوع الزوجين أمام المذبح المقدس محنيي الرأس وفوقهم قد رفع الكاهن الصليب، أتذكر دائما وقفة الشهداء الأبرار الأوفياء وهم محنيّو الرأس إستعدادا لقبول الشهادة عن الذات، وإستبدالها بمجد الملكوت السماوي والإنطلاق للنعيم في أحضان العريس الأبدي - مَنْ بذل نفسه وحياته سكيباً ليُحيينا بحبه.

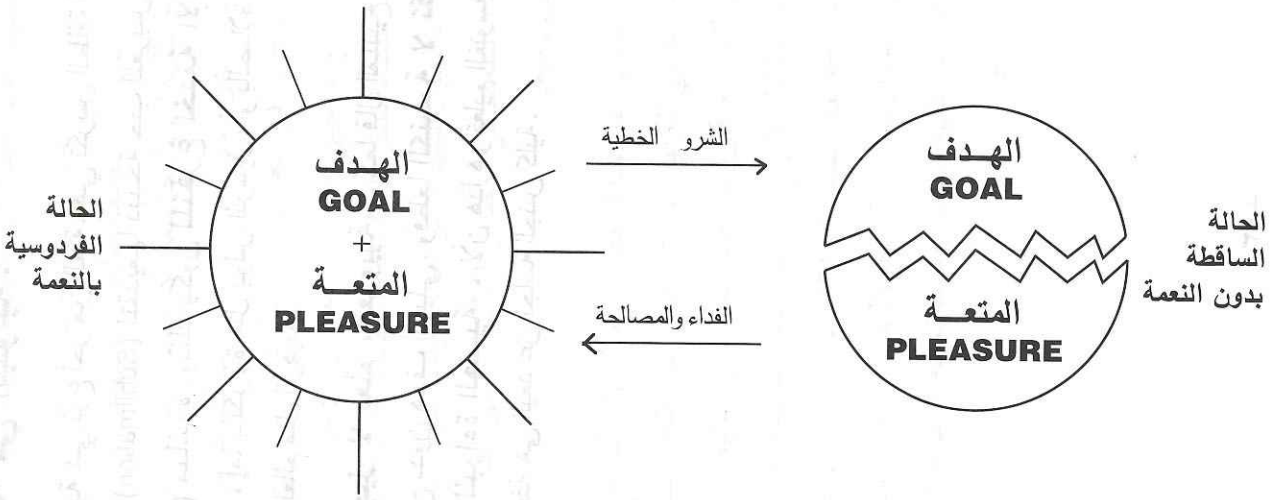
ويقول كوستي بندلي عن هذا (الجنس ومعناه الإنساني صـ ٣٣٩): «يقول المتصوف الألماني الكبير تولر: البعض يحتملون الشهادة مرة بالسيف، والبعض الآخر يعرفون إستشهاد الحب الذي يكللهم من الداخل». ولهذا تضع الكنيسة الأكاليل على رؤوس المتزوجين كعربون ما سيجاهدون من أجله في «السر العظيم» (أفسس ٥: ٣٢) «سر الحب» كما علم يوحنا ذهبي الفم، الذي هو مثال علاقة «المسيح والكنيسة». ومن هذه اللحظة يخرج الزوجان وقد وعدا الشهادة للحب ولملكوت الله ككنيسة كارزة للعالم المتعطش لهذا السر العظيم.

+ العفة في البتولية:

البتولية هي نوع آخر من العفة، هي تكريس الطاقة الجنسية وإعلاؤها بالتسامي (Sublimation) لتقديمها ذبيحة حب للعريس السمائي (الختن الحقيقي) مباشرة. وذلك يكون **للتفرغ لخدمة الإنجيل وملكوت السموات**، إما بالكرازة مثل بولس الرسول، أو بالصلاة من أجل الكنيسة وخلاص العالم مثل الرهبنة.

فالإنجيل لا يُعلّم «العزوبية» - كما قال المتنيح الأنبا بيمن - أي عدم الزواج بدون هدف إنجيلي. وقطعا **الكنيسة لا تقبل التبتل حبا وتقديراً «للبراءة الجنسية»**، لأن هذا هو تعليم الغنوسية والمانوية الذى يرى أن العفة هى البعد عن نجاسة الجنس كلية.

مشكلة الإنسان



الإنحياز للمتعة: الإباحي - يعبد المتعة - أناني - يشيِّء الآخر لمتعته - يهرب من المسئولية.

رغباته: شهوات شريرة LUSTS - غير سعيد. يتنكر لأهداف الحياة - خلاصه فى متعته.

الشرير المثالي - يرفض التوبة لأنه غير ملتزم.

الإنحياز للهدف: المتزمت - الغنوسي - المكبوت.

المانوي الذي يكره المادة والجسد والمتعة. يدَّعي النسك الفاسد - الفريسي المثالي.

يظن في نفسه القداسة والعفة - غير سعيد.

ينجِّس خليقة الله على أنها شريرة.

- الإثنان جسديان في ظلمة وتخبط وثنائيات.

- عموم فلسفات الإنسان تقوم على مبدأ من الإثنين: المتعة الإباحية أو الهدف المتزمت.

- المسيحي الإنسان مولود النعمة - متكامل غير منقسم

- يحترم أهداف دوافعه - يحققها ويتمتع بها - فى وحدةٍ.

- تسبيحه يفيض من تمتعه وصحته النفسية.

- ليس فيه ثنائيات ولا تضاد بين أهدافه وتمتعه.

- يحقق حاجاته الإنسانية لخيره وخير الآخرين.

- رغباته ليست شهوات بل شهيات مقدسة، APPETITES - يحيا في النور - يحيا منقاداً بروح الله، لذا لا يحكم فيه أحد ولا قانون أرضي، إن ثبت في الحق - ليس فيه كبت بل ضبط.

- **الراهب والراهبة:** يقبل قداسة المتعة ولكنه يهديها لله ذبيحة مقدسة - أجود الحملان. وذلك لرسالة خاصة.

لذلك يُفهم **إكليل البتولية** (كإكليل الزواج) على أنه إكليل شهادة وإستشهاد عن رغبات الإنسان الشخصية الخيرة والجيدة، لحساب الملكوت السماوي. **فهو ليس تخليا عن مُتع شريرة حقيرة من أجل الخير،** لأن هذا ضرورة حتمية لكل المؤمنين، أي الجهاد ضد الذات والشر المعبَّر عنه: بالشهوات الجسدية. وأعمال الجسد والأعضاء الأرضية والعالم الشرير... إلخ. ولكن البتول يقدم لله «أجود الحملان التي بلا عيب»، ذبيحة حب حية مرضية. لذلك فالفكر الغنوسي الذي ينجس الجنس لا يقدم لله «حملان بلا عيب» بل تكون تقدمته نجسه وغير مقبولة.

يقدم الراهب أو الراهبة لله نذرا ثلاثيا: **البتولية** (وتسميتها العفة هنا خطأ في التعبير لأنه يوحي بأن الزواج ليس عفة!)، **والطاعة**، **والفقر الإختياري**. وهذه ثلاث ذبائح أو حملان بلا عيب: الطاقة الجنسية (الحاجة إلى الجنس)، والحاجة إلى الإمتلاك الضروري (Need for pisses-sion)، والحاجة إلى التقدير (Esteem need for appreciation). وهذه الحاجات الإنسانية وما تحمله من متعة جسمية أو نفسية، كلها من خلقة الله في الإنسان لنموه وصالح الإنسانية. **فالإمتلاك الضروري** هدفه الحصول على ضروريات الحياة من طعام وملبس ومسكن ووسائل للإتصالات والثقافة والفن والرياضة... إلخ، وذلك لأن الإنسان لا يستطيع إستعمال أي شيء إلا لو إمتلكه أولاً: بالإقتناء بالعمل، أو كهدية أو بالسرقة! أما الطمع وحب المال فهو الإنحراف في هذا الدافع الإنساني وليس الدافع نفسه. وأما **الحاجة إلى التقدير**، فهدفها شعور الإنسان بأنه نافع للحياة والمجتمع. ولذلك لا نحسب التقديم على وظيفة عليا أو طلب الترقي الوظيفي على أنه شهوة تعظم، بل هو مكافأة الأمانة في العمل والحياة عموما. وهدف التقدير

والترقي النهائى هو إستعمال المسئولية الجديدة لتحسين حياة المجتمع، بأن يقوده أكثر الناس قدرة على العطاء والبذل والتدبير (الإدارة) الحكيم. أما شهوة تعظم المعيشة فهي إنحراف الهدف بأن يسعى الإنسان، ليس لحمل المسئولية لخيره وخير الآخرين بل، لأجل تسلطه وإشباع ذاته فقط. لذلك، **فمقياس إنحراف الدوافع الإنسانية** كلها (Human needs) هو: «هل أنا أحب الآخر مثل نفسي أم أحب نفسي فقط»، الأول خير، والثاني شر مقيت.

وقد أعطانا الله **حافزاً هاماً ومكافأة** ليحثنا على تتميم هذه الحاجات الإنسانية كلها، وذلك هو «**المتعة**» المصاحبة لتتميم أي من هذه الدوافع، مثل متعة الأكل ومتعة المعاشرة الزوجية ومتعة الإمتلاك الضروري ومتعة التقدير. وهذه كلها هدفها أن يعطي الإنسان من نفسه ويضحي أكثر من أجل خيره وخير الإنسان. **فالطعام** يحافظ على الصحة لخدمة الحياة والمجتمع، **والجنس** يعمق الحب الزوجي أو يتسامي في الأنشطة الإنسانية، **وتقدير الإنسان** يدفعه لخدمة المجتمع بنشاط وفرح وشعور بالقيمة وبالنفع (أو الإحباط في حالة عدم إشباع هذا الدافع)، **والملكية** تصلي من أجلها الكنيسة: «إذ يكون لنا الكفاف في كل شيء نزداد كل حين فى كل عمل صالح». لأن الإنسان يعطي ويشارك بما أعطاه الله له: «من يدك - أخذنا وإمتلكنا - وأعطيناك».

والرسم، «مشكلة الإنسان»، هو محاولة لتوضيح كيف خلقنا الله. **فالدائرة المتكاملة** ترمز لأي دافع إنساني (حاجة إنسانية) مثل الحاجة إلى الطعام والجنس والتقدير والملكية. في هذه الدائرة يظهر أن كل دافع

يتكون من **هدف** أو مسئولية، **ومتعة مصاحبة** لهذا الهدف، كحافز لتتميم قصد الله وإرادته فينا. فبدون هذه المتعة ما كان الإنسان سيأكل أو يتزوج أو ينجب أو يوافق على تحمل المسئوليات الصعبة، وما كان يسعى إلى كسب المال (الملكية) ليسد حاجاته ويشارك في سد أعواز القديسين ذوي النصيب القليل في الحياة، بل ويشارك في إستثمار خيرات الأرض.

والخطية لم تنشىء في الإنسان أي صفات أو سمات جديدة، بل هي فقط حطمت الوحدة الكيانية في دوافع الإنسان. فأصبح الإنسان فى حالة حيرة، عليه أن ينحاز إلى نصف واحد من الدائرة المكسورة فإما **ينحاز للمتعة** وحدها ولا تهمه مسئوليات الحياة، وهذه هي حياة الإباحي الأناني أو الشرير بالمعنى المفضوح، وإما **ينحاز إلى أهداف الدوافع فقط**، فلا يرى من الأكل سوى حياة جسده الضرورية فقط، ولا يرى من الجنس إلا هدف التناسل فقط، ولا يرى للتقدير هدفاً إلا التسلط على الآخرين بصورة فريسية، والتملك الضروري بالنسبة له طمع ورأس مالية تستحق إعدام صاحبها! والحقيقة أن كل فلسفات العالم القديم والجديد ما هى إلا محاولة لإصلاح هذا الكسر والشروخ في شخصية الإنسان ودوافعه، ومحاولة يائسة فاشلة في «تصميغ ولصق» نصفي الدائرة المكسورة... بدون جدوى.

أما عمل الفداء فهو لإسترجاع هذا التناغم مرة أخرى، وتحقيق إشتياق الإنسان أن يحيا أهداف الحياة ويكملها، بصورة يتحقق فيها إنسجامه مع نفسه، وكمال إنسانيته الجديدة في الله، ورضي الله والقريب في نفس الوقت بدون أنانية الإباحية، ولا تشنج وخوف التزمت المريض.

وقد تتساءل: لماذا هذا الحديث الطويل عن المتعة والهدف في الدوافع الإنسانية وعنوان هذا الجزء هو العفة في البتولية؟!

الإجابة هي: بدون إحترامنا وإدراكنا لمعنى المتعة وأهمية الحاجات الإنسانية الخيِّرة في الإنسان، يتوه جمال النسك والبتولية والرهبنة. أو قد يظن البعض أن هذه الأنشطة المسيحية هي والغنوسية شيء واحد!! أو إذا تصورنا أن جمال النسك والبتولية والرهبنة هو فقط في التخلي عن أمور باطلة حقيرة، تتشوه عندنا صورة الزواج الطاهر، ونظن أن المسيحي في كماله هو الراهب والراهبة فقط، ويصبح عموم شعب الكنيسة (أي القسم الأكبر من جسد المسيح) هم «أهل العالم»، وضعاف المؤمنين ومسيحيين من الدرجة الثانية، لأنهم ليسوا بقادرين على كمال النسك، لأنهم لا يزالون مستعبدين للحاجات الإنسانية الضرورية. وتصبح بالتالى أنشطة المسيحي كلها شهوات جسدية شريرة حقيرة ويضيع جمال خليقة الله في الإنسان.

فكما رأينا، فإن المتزوج والبتول كلاهما يحارب حربا واحدة ضد الشر والأنانية. **ولكن البتول (الراهب والراهبة) يحارب حربا أخرى لا يحاربها المتزوج، وهي الحرب ضد «سرقة الذبيحة» (المتعة) التي قد وهبها لله ذبيحة حب في نذر الرهبنة.**

فالراهب قد يستعمل كل «التكتيكات الحربية والروحية» لكي لا يسقط في تجربة السعي وراء التمتع الجسمي أو النفسي. وذلك ليس لأن هذا التمتع في حد ذاته شر بالنسبة للمسيحي عموما، ولكن لأن الراهب قد وهب ونذر حاجاته الإنسانية كما رأينا، بكل ما تحمله من متع طيبة وخيرة هدية حب لله، لرسالة هامة كما سنرى، فهو (أو هي) إن شعر برغبة في التمتع في

الأكل أو بشوق للزواج أو الإمتلاك أو التقدير (وهو غير مناسب مع الطاعة الكاملة التي لا تترجى أي تقدير أو تدليل للأنا) يشعر هنا بتجربة صعبة للغاية، وهي الرغبة في إستعادة أو سرقة ما قد سبق وقدمه لله، كحمل بلا عيب.

من هذا المنظار المسيحي المتوازن يمكننا تقدير نسك الرهبان بدون إحتقار الحياة المسيحية الطبيعية في الزواج والوظيفة والملكية. ويمكننا أيضا إدراك جمال وعظمة نذر الرهبنة وقوته بالمقارنة بإباحية العالم، بدون أن نظن أن في الرهبنة تزمتاً، أو في الزواج ضعفاً إنسانياً وروحياً كما علّمت الغنوسية.

فالراهب لا يقف نداً للمسيحي المتزوج (كما يحاول الكثيرون رسم هذه الصورة بسؤال: أيهما أعظم البتولية أم الزواج). **ولكن الرهبنة رسالة خاصة غير عادية**: فكما قلنا، الإباحي الشرير يظن أن الإنسان يحيا بالخبز وحده وبمتعة الجنس وحدها وبالملكية الأنانية وحدها وبشهوة تعظم المعيشة وحدها وبدون تحمل المسئولية الملتزمة، التي يجب أن تصاحب المتعة لتعطيها معناها الإنساني الأصيل.

أما الرهبنة فتقف في ثورة صامتة وتحدٍّ قوى أمام إنحراف الإباحية، لتُشهّر به وتدينه بأن **تتنازل حتى عن التمتع الخيّر (كذبيحة حب) وتحيا الحياة بأهداف الدوافع الإنسانية فقط**. بذلك تثبت الرهبنة بيقين قوى أن الإنسان لا يحيا بالمتعة وحدها، بل على العكس يمكنه بنعمة الله أن يحيا أهداف الحياة وحدها وبتخلٍ كامل عن كل التمتع الخير، وذلك لتحارب شر الإباحية.. الرهبنة بذلك لا تقف في مواجهة المسيحي

المتزوج، بل في مواجهة الإباحي الماجن. ولماذا هذه الرسالة؟ لماذا لا يحيا الكل في الزواج والحياة العادية؟ هؤلاء الرهبان والبتوليون هم مثل العلماء المتخصصين في الحرب الروحية تقدمهم الكنيسة ذبائح مسبّحة ونماذج لإدانة التطرف الإباحي. لأن النموذج المسيحي المتزوج يحيا الهدف والمتعة معا، وقد يخطيء العالم الإباحي في تقييمه. أما الراهب الحقيقي فهو صوت صارخ في برية العالم الإباحي: «تعالوا وأنظروا، يمكنكم أن تحيوا بإعتدال إنساني، فيه المصالحة بين أهداف الحياة ومتعها، مثل كل مسيحي. وإن لم تصدّقوا من يحيون هكذا، فها أنا ذا أحيا بأهداف الحياة وحدها كإثبات لخطأكم». ليس الراهب هنا متزمتاً غنوسياً يتنكر لخير الحاجات الطبيعية ومتعها، بل محاربٍ مُضحٍ قد قدم خيرة حملانه مدافعا عن الحق والفضيلة وقد إختار التسامي بدوافعه ليكرز بالملكوت.

والآن يمكننا أن نسلط نور **تعاليم بولس الرسول** في رسالته إلى أهل كورنثوس، الإصحاح السابع عن البتولية. وكما قلت، فلم يدْعُ بولس الرسول إلى بتولية الغنوسية بل دعا البتوليين ليكونوا مثله: «**كما أنا**»، أي في تبتل لأجل الكرازة بملكوت الله وليس لإعلاء التبتل على الزواج، ولا للعزوبية ولا للبراءة الجنسية في حد ذاتها كفضيلة. ويوضح بولس الرسول أنه لو إضطر المسيحي **لأجل التفرغ** أن يصبح مثل بولس الرسول، فهذه هي البتولية المطلوبة. ويلخص الأسباب في: «لسبب الضيق الحاضر» (عدد ٢٦)، وأن المتزوجين في ضيق الإضطهادات «يكون لهم ضيق في الجسد» (عدد ٢٨). وبما أن «الوقت منذ الآن مقصر» (عدد ٢٩) فكان بولس الرسول يقول «أريد أن تكونوا بلا همٍّ» (عدد ٣٢). لهذه الأسباب فقط، أي **لتجنب زيادة الضيق في أيام إمتلأت بالضيقات، وقد قرب**

مجيء الرب على الأبواب، وتحتاج الكنيسة لكرازة سريعة، لهذا «من يتزوج يفعل حسنا ومن لا يتزوج يفعل أحسن» (عدد ٣٨).

أما إن أردنا تفسير هذا الكلام بأن الزواج ليس في مستوى قداسة البتولية، فكيف ولماذا إختار بولس الزواج (وليس البتولية زواج العريس السماوي) كنموذج سر الحب العظيم (أفسس ٥: ٣٢) بين «المسيح والكنيسة»، ولماذا رد على الكورنثوسيين مؤكدا أهمية العلاقات الزوجية، وعلى العبرانيين مؤكدا كرامة الزواج وطهارة المضجع؟ وحتى عبارات: «غير المتزوج يهتم فيما للرب كيف يرضي الرب وأما المتزوج فيهتم في ما للعالم كيف يرضي إمرأته» (عدد ٣٣)، لا تدل في سياق الحديث والتعليم العام أن الله يسرُّ أكثر ويرضي أكثر بإهتمام غير المتزوج. بل بولس الرسول يحاول فيها **تأكيد رسالة كل من الزوجين نحو الآخر وأن هذا هو العمل الذي به يُرضي المتزوج شريكه والرب.** وذلك لكي لا يحاول الغنوسيون من أهل كورنثوس إقناع البقية بأن إرضاء الرب هو بالبتولية وحدها.

إن قداسة البابا شنودة الثالث يؤكد دائماً على خطورة مبدأ إستعمال الآية الواحدة في التفسير. يجب فهم سياق الحديث كله ومقارنته مع مثيله في أحاديث أخرى للكاتب نفسه وغيره أيضا.

لقد سُئل قداسته مرة: «أيهما أعظم الزواج أم البتولية؟» فأجاب: «إن كل جهاد الرهبان والبتوليين هو لكي يجدوا في النهاية مكانهم في أحضان إبراهيم وإسحق ويعقوب... ثلاث قديسين متزوجين!» (عظة مسجلة للمتنيح الأنبا بيمين). وكان قداسته قد سُئل أيضا في زيارته للندن في

نوفمبر سنة ١٩٩٠ في محاضرة لإكليروس الكنيسة الأنجليكانية عن التمتع الجسدي والرغبة الجنسية في الزواج. وقد أجاب بأن التمتع الجسدي مقبول مادام بحسب إرادة الله والناموس الطبيعي (nature) ووصية الكتاب، مع ضبط النفس (self control). أما الرغبة الجنسية في الزواج فعلَّم بأنها حسنة. وقد ردد تعليم القديس أغسطينوس بأن بدون هذه الرغبة ما كان الإنسان سيتزوج (حافزا على الزواج).

البتولية إذن هي نوع من أنواع العفة، وليست هي هروبا من مسئوليات الحياة بل تكريسا للجنس الإنساني، وشهادة حية ضد الإباحية (شهوات العالم الشرير) تدعو الإباحيين للتوبة والحياة بإحترام أهداف الحياة والدوافع الإنسانية، في وحدة مع المتع التي أعطاها لنا الله كحوافز لتتميم إرادته، لخيرنا وخير القريب والكون كله. إنها إستثمار عالى الربح لحساب ملكوت السموات. الزواج والبتولية هما إذن طريقان رسميان لقلب العريس السماوي. **يرتفع البتول أو المتزوج في المجد الأبدي بمقدار المحبة التي إختزنها لله والقريب والكون، وليس بالإسم ولا بنوع الرسالة في حد ذاتها.**

خاتمة

ولعل أجمل ما أختم به الكلام عن العفة والجنس الإنساني هو أحد أقوال القديس يوحنا ذهبي الفم وقد إستشهد به كتاب «دعوني أنمو» لقدس أبينا تادرس يعقوب ملطي صـ ١٠٤ وهو مأخوذ من (In Colos. hom 12):

«كيف يصيران جسدا واحدا؟ كأن قطعة من أنقى جزء من الذهب تمتزج بذهب آخر، هكذا بالحقيقة تتقبل المرأة أغنى جزء من الرجل لتلتحم به كما في بهجة. فيحدث إنتعاش وتدليل، وتقوم بالمشاركة معه لإنجاب كائن بشري. هكذا يكون الطفل جسرا خلاله يصير الثلاثة واحداً. أنا أعرف أن البعض يخجلون مما أقوله، ذلك بسبب نجاستهم ودنسهم... لماذا نخجل مما هو مُكرّم... إنكم تدينون الله الذي سنّ هذه الأمور».

المعنى العملي للمحبة والمساواة

بين

أقانيم الثالوث القدوس

(في الكنيسة والأسرة)

المعنى العملي للمحبة والمساواة
بـــين
أقانيم الثالوث القدوس

علمنا المتنيح نيافة الأنبا بيمين أسقف ملوي الراحل: «أريد أن يكون فيكم الفكر الثالوثي أي الفهم الحي والمُعاش للثالوث القدوس. فالله ليس هو أقنوم الابن «الرب يسوع المسيح» وحده ولكنه ثالوث في تساو ووحدة بالحب في جوهر وطبيعة ومشيئة واحدة». وقال ڤيلاديمير لوسكي اللاهوتي الأرثوذكسي الروسي المعاصر ما معناه «إما الثالوث أو لا شئ!»، أي بدون فهمنا لمعنى المساواة والمحبة التي في الثالوث القدوس لا نستطيع إدراك المحبة والتساوي بيننا في علاقاتنا في الكنيسة والأسرة بل والحياة مع العالم الذي يترجى ويشتهي هذه المحبة والمساواة. أليس هذا هو الدافع وراء كل الثورات، والكفاح الإنساني، واحترام حقوق الإنسان، وقيام هيئة الأمم المتحدة وغيرها من الأنظمة التي تعكس عطش الإنسان للمحبة والمساواة والاحترام الكامل بين البشر؟!

المحبة والحرية:

إحتار اللاهوتيون في اجابة سؤال «ما هو جوهر الله – أي طبيعته – بالضبط؟» وأقرب إجابة أعلنها لنا الله نفسه على لسان يوحنا الحبيب أن «الله محبة». ولعل هذا هو السبب أن أهم ما أعلنه السيد المسيح عن علاقته

بالآب هو الحب الذي يجعلهما واحداً، وأنه إذ أراد أن يسكب فينا أغلى ما أعطاه له الآب قال: «أنا أعطيتهم المجد (ذاته) الذي أعطيتني.... وأنت أحببتهم (تماما) كما أحببتني» [يو ١٧: ٢٢-٢٣].

فالإنسان في عمق جوهره هو فيض من حب الثالوث القدوس! على شبهه كمثاله. إن الله لا يحتاج لآخر خارجه لتكتمل سعادته. فهو قبل البدء - كما علمنا المتنيح الأنبا بيمين مرددا تعليم الآباء الأولين - فيه المحب والمحبوب وروح المحبة وهو مستقر ومستريح في ذاته لا يحتاج لآخر. لكنه من فيض الحب أراد أن يخلقنا لنشاركه هذا المجد. وهذه المحبة لا تُفهم أيضاً بدون الحرية. فسارتر - الملحد الوجودي - أخطأ فهم محبة الله التي رآها في المسيحيين الناقصين في المحبة. فرأى أن الله إذا كان يجبرنا على المحبة فهو إله سادي وظالم لأنه لا يترك لنا الفرصة لرفض هذه المحبة!! وهذا مسيحياً صحيح وسليم!! إلا أن الله، في الاعلان المسيحي، لا يُلزمنا ولا يجبُرنا على حبه بل أعطانا الحرية التي بها نقبله أو نرفضه... «نحييه أو نميته بالصلب» كما كتب كوستي بندلي في كتاب إله الإلحاد المعاصر. فالله إلهنا ليس إله عبيد بل إله أحرار ولذا سمانا أحباء [يو ١٥: ١٥]. وأعلن لنا سرَّه لأننا لسنا عبيداً يخفي عنهم السيد ما هو مزمع أن يعمله.

إن محبة الله هذه جعلته يدخل نفسه في «**مخاطرة الخليقة!**» أي أن يقبل بأن يخلق آخر أمامه له كامل الحرية أن يرفض أو لا يريد أن يتعامل معه إلى الأبد إن شاء هذا الآخر!! (ف. لوسكي) .. إن هذا الرفض - وللأبد - هو أعمق معنى لفهم «الخطية» و «إختبار جهنم» الأبدي أي

البعد عن الله بالاختيار الكامل من الإنسان وبحريته.

لقد عبر غريغوريوس اللاهوتي في القداس عن هذه المعاني التي نصليها:

«لأجل الصلاح وحده خلقتني وكونتني ووضعتني في فردوس النعيم.. وأخضعت كل شئ تحت قدمي.. لم تدعني معوزاً شيئاً من أعمال كرامتك...(ولكني) أنا إختطفت لي قضية الموت (بإرادتي)»!!

(القداس الغريغوري).

إن نظرة حب واحدة من إنسان حر لا تساويها سجدات عبيد الأرض كلهم، ولو حتى للأبد، في نظر الله. فأي قيمة لسجود عبيد مجبرين وأي قيمة في أداء فرائض ملزمة إذا قورنت بنداء حب ولو لثانية واحدة في الزمن؟ لذلك لا يحتاج الله لعبادتنا بل نحن الذين نشتهي الوقوف أمامه بفرح لكي يسكب علينا حبه ومجده:

«لست أنت المحتاج إلى عبوديتي (أي عبادتي وتكريسي لك) بل أنا المحتاج إلى ربوبيتك (أي أبوتك ورعايتك لي)» (القداس)

إن كانت هذه هى محبة الله التي ندركها من هيام الإبن حبا في الآب في صلاته [يو ١٧]، ومسرة الآب حباً في إبنه الوحيد الذي لنغمات حبه نسمع، ونطرب ونهتز سجوداً وتسبيحاً.. إن كانت هذه المحبة هى نفسها والمجد المعطى معها هى هبة الإبن لنا [يو ١٧: ٢٢- ٢٣]، التي يأخذ

الروح القدس منها ويعطينا [يو ١٦: ١٥]، فكم ينبغي أن نحب نحن بعضنا البعض. كم نحن مدينون لبعضنا بمشابهة أبينا السماوي «الكامل» والمُعلَن لنا في شخص المسيح صورته ورسم جوهره والذي يشهد عنه روحه القدوس الساكن فينا كلما ذكرنا إسمه القدوس؟

المساواة والخضوع كمثل الثالوث

يعلمنا الكتاب أن الإبن الكلمة «يخضع» لمشيئة الآب [مز ٤٠: ٨ و لو ٢٢: ٤٢ و ١كو ١٥: ٢٨]، ولكنه مع ذلك هو والآب واحد في المساواة والمحبة والطبيعة والكرامة والقدرة... كيف؟ كيف يتساوى الخاضع لمن يخضع له؟ هذا هو سر علاقة أقانيم الله.. هذا هو سر الطاعة الذي يصعب علينا أن نفهمه إذا قسناه بمقاييسنا الناقصة كبشر! لأن كلاً منا له ذاته الخاصة (Ego) ولسنا في وحدة كاملة، لذلك لا يمكننا أن نفهم جمال وكمال الخضوع (أي الطاعة) مع المساواة، فإن تساوى إثنان يصعب الخضوع.. وإن خضع أحد تختفي المساواة. ما هو إذن السر الذي يجعل الخضوع والمساواة يتكاملان معاً؟!

الإجابة هي: «**المحبة**».. الحب الكامل هو الدافع الوحيد الذي يجعل المحب يعطي – لا مشيئته الخاصة فقط بل – حياته كلها بدون قيد ولا شرط وبفرح ولذة لمحبوبه، ولا يكون هنا إحساس بالدونية أو النقص بأي صورة بل على العكس.. فمن يزيد في عطائه، فهو أكبر في حبه وأعظم في بذله!!

لذلك فعمل الخلاص والتجسد لم يُنْقِص الله شيئاً، كما يتصور من يرون أن الله منزَّه عن الخليقة والإنسان وأن حلوله فيهم إنقاص لجلاله!

فالآب أحبنا وبذل حياة ابنه – ساكباً إياها فينا – بدلاً من الموت الذي دخلناه بأرجلنا وشربناه بكامل إرادتنا إذ إخترنا التأله بعيداً عنه.

والإبن أحبنا حتى أنه تنازل وأخذ طبيعتنا في اتحاد كامل مع لاهوته لا ينفصل لحظة واحدة ولا طرفة عين للأبد (بلا إختلاط ولا إمتزاج ولا تغيير). حتى الموت، لم يفصلهما، بل بالقيامة أكد أننا لازلنا فيه بكامل طبيعتنا الممجدة التي فيه كباكورة لنا.

والروح القدس أحبنا فأحيانا بحياة الله وأعطانا سلطانا أن نصير أبناء الله بالنعمة [يو ١: ١٢]، فأصبحنا شركاء الطبيعة الإلهية [٢بط ١: ٤]! من هذا لا نفهم فقط أن أقانيم الثالوث في خضوع وطاعة مع بعضهم البعض بل قد يصح – إن سامحني القارئ على هذه الجسارة – أن يقال **أن الله قد أخضع نفسه لإحتياج الإنسان** (حباً ورحمة لا قسراً) حينما قبل أن يقدم لنا الخلاص وهو غير محتاج لنا بالكلية!! أليس هذا هو ما يلمح له الله المحب للنفس البشرية في قوله: «حوِّلي عني عينيك لأنهما قد غلبتاني» [نشيد ٦: ٥]؟

يقول كتاب إله الإلحاد المعاصر مدافعاً عن حب الله ورقته: إن المحب دائماً يفتقر إلى محبوبه لأن بدونه لا تكتمل السعادة. إذن فالله المحب لانهائياً، فقير لانهائياً بحبه لنا!! الله اختار أن يفقر ذاته حباً فينا!! أليس هذا معنى البذل وإخلاء الذات [فى ٢: ٧]؟!

إن هذا هو اعلان الله لنا في روعته عن محبته لنا وطاعته لإحتياجنا – إن صح التعبير – وطاعة أقانيمه لمشيئة حبه فينا نحن الخليقة الضعيفة التي سكب فيها «كل ملء اللاهوت» [كو ٢: ٩] في شخص المسيح كباكورة لنا [رو ٨: ٢٩]. هذا كله بالرغم من مساواة أقانيمه!!!

كيف نطبق هذه المعاني في حياتنا اليومية وتصبح لنا خبزاً يومياً في الكنيسة والعائلة؟!

تعلمنا الدسقولية – تعاليم الآباء الرسل – في باب عن السلطان الكنسي: «ليكن الشماس (وعضو الشعب ضمناً) بالنسبة للأسقف (أو الكاهن) كالإبن بالنسبة للآب، ملكا ونبياً».. «ولا يقول غير الإكليروس إنني خروف ولست براعٍ (أي ليس لي عمل ودور هام في الكنيسة). لأن خرافي هي خليقة عاقلة». ويردد آباء الكنيسة هذا المعنى عبر التاريخ كما يوضحه اللاهوتي الروسي المعاصر پول إڤدوكيموف في كتاب «سر الحب» بأن الإختلاف بين شخص الإكليروس والعلماني في الكنيسة هو اختلاف وظيفي فقط. فليس هناك إختلاف في الكرامة ولا الطبيعة ولا الكيان. ذلك لأنهما على مثال الآب والإبن.. متساوون في كل شئ، وواحد في كل شي، ما عدا الصفات الأقنومية – أي التميز الوظيفي بينهم، هذا هو الفارق الوحيد بحسب إيماننا الأرثوذكسي. ذلك الذي يأخذ الثالوث القدوس كنموذج لعلاقة الأسقف بشعبه. لذلك أيضاً لا يختار الأسقف أسقفٌ آخر، بل يختاره شعبه ويُجلِّسه في حضور «أساقفة» آخرين، علامة الشركة والمساواة في الخدمة الرسولية. لقد رفضت الكنيسة تعليم الأريوسيين لأنهم رأوا أن الآب أعظم من الابن، وفي هذا الإنحراف الغاء للمساواة في الكنيسة بين

الإكليروس والشعب وهو لا يوافق نموذج الآب والابن كما في تعاليم الرسل الأطهار.

أما بالنسبة للأسرة وعلاقة الزوج بزوجته فيقول بولس الرسول «ليست المرأة من دون الرجل ولا الرجل من دون المرأة» [١كو ١١: ١١].

ويضيف أن يحب الرجل إمرأته **كما** أحب المسيح الكنيسة باذلا نفسه لأجلها [أف ٥: ٢٥] وبذلك يصبح الرجل «رأس المرأة **كما** أن المسيح رأس الكنيسة». وعندئذ فقط يمكن القول أن المرأة تخضع لرجلها **كما** تخضع الكنيسة للمسيح [أف ٥: ٢٤].

أما رئاسة المسيح على الكنيسة فهي رئاسة تختلف اختلافاً جذريا عن الرئاسة عند البشر. لأن رؤساء هذا العالم يسودونهم .. «أما أنتم فلا يكون فيكم هكذا.. بل من أراد أن يكون رئيساً فليكن خادماً للكل..» [مت ٢٠: ٢٦ – ٢٧].

وإن كانت الكنيسة تعلمنا أن علاقة الأسقف بالشعب هى على مثال علاقة السيد المسيح بالكنيسة، وعلاقة المسيح بالكنيسة هى نموذج علاقة الزوج بالزوجة، يصح أن يقال أن علاقة الزوج بزوجته هى أيضاً على مثال علاقة الآب بالإبن. وقد أكد القديس يوحنا ذهبي الفم هذا عندما علم بأن الزوج وزوجته وروح المحبة التي تجمعهما (سواء أنجبا أم لا) هم **أيقونة للثالوث القدوس!**

مجموع هذا الكلام وخلاصته، أن الخضوع والرئاسة في الأسرة لا يمكن فهمها مسيحياً بدون التطابق مع مفهوم الخضوع والأبوة التي في

الثالوث القدوس! فالله وحده بأقانيمه وحبه هو الذي فيه كمال المساواة مع كمال الخضوع والطاعة بلا أي نقص، وذلك لكمال الحب المطلق الذي يحول هذه العلاقة إلى سيمفونية شجية، تتميز فيها الأنغام ولكنها تنسجم بالتمام، فتصبح وحدة لا يمكن فهمها إذا فصلنا نغماتها بعضها عن بعض أو نظرنا إلى إحديها على أنها أعظم أو أقل في الأهمية!!

أيضاً رئاسة السيد المسيح على الكنيسة لم يأخذها أبداً بسلطان ألوهيته وقدرته على الإخضاع.. حاشا!! فهذا الفهم مهين لكرامة المحبة والحرية ويلغي قيمة الكنيسة وبالتالي كرامة رأسها أي المسيح نفسه!

لقد إقتنى الربّ رئاسته على العروس المجيدة (المزينة بتبررات القديسين للأبد) حينما إقتناها بدمه، أي ببذل نفسه بالكامل ليخطب ودّها أبداً! «إفتحي لي يا حبيبتي يا حمامتي.. لأن رأسي إمتلأ... من ندى الليل» [نشيد ٥: ٢].. والكنيسة إذ تحس بهذا الحب الجارف والحياة المبذولة بلا ندامة من أجلها ترفعه وتسميه «ربنا وإلهنا ومخلصنا وملكنا كلنا ربنا يسوع المسيح الذي له المجد الدائم إلى الأبد... آمين» فهو لم يطلب هذا بل قدمته الكنيسة طوعاً. ولكي تجيب نداء حبه، بذلت أيضاً حياتها حتى الدم خضوعاً لحبه وشهادة لغرامها به!!

الرئاسة إذن هنا هى **التقدم في البذل** (To be **a head** is to be **ahead**) وليست التسلط كما يفهمها الإنسان بعيداً عن رسالة الإنجيل المفرحة.

والخضوع هنا هو **تقبل وتقدير واحترام البذل** المعطى من الزوج لزوجته. فليس بين المسيح والكنيسة من سيد وعبد بل محب

ومحبوب لذلك فهو يعطينا الحب (ذاته) والمجد (ذاته) الذي يعطيه له الآب [يو ١٧: ٢٢- ٢٣] وليس مجد شبيه ولا حب شبيه - أنظر الترجمات الانجليزية فهى أوضح من العربية (Good News Bible).

نرى إذن أنه **إذا انعدم الحب من الرجل فهو ليس برأس لأسرته، فقد إستقال، ولذلك تثور ضده المرأة** - بسبب المساواة الموجودة فعلاً - ولا تستطيع أن تخضع لأن الخضوع بدون حب مذلة ومهانة. وإن كان الخضوع هو تقبُّل الحب ومبادلته بالحب، فماذا يقدم الرجل غير المحب لزوجته حتى تستطيع أن تتقبل منه؟!

إن مشكلة «العالم» البعيد عن الله (وحتى بعض المؤمنين قليلي المحبة) أنهم لم يفهموا مغزى كلمة «كما» في قول بولس الرسول عن الرئاسة والخضوع «كما» المسيح والكنيسة في علاقتهم!

ولم يفهموا معنى الحب والمساواة التي في الثالوث، لذلك فهم يعانون من ثورات «حرية المرأة»!! إن المرأة لا تبحث عن الحرية خارج الأسرة أيها الرجال بل داخلها! إنها حقيقة تبحث عن الحب الزوجي من رجلها والبذل الذي يستطيع أن يفجر فيها طاقات العطاء وقبول الحب بالحب - أي الخضوع بالمعنى الإنجيلي السليم - عندئذ فقط تتوج رجلها رأساً بإرادتها الحرة كما الكنيسة للمسيح، فالرجل ليس رأساً بذكورته بل كهبة حب من زوجته إن بذل نفسه على مثال المسيح.

إن مفاهيمنا للأسف قد تدنست كثيراً بمفاهيم «العالم» البعيد عن الله، لذلك لن نفهم معنى الرئاسة والخضوع إن لم نَعُدْ إلى حضن الآب.. هناك وهناك فقط.. نفهم كمال الحب والمساواة والخضوع للوحدة ومن أجل

السعادة الواحدة وليس للتسلط سواء في الكنيسة أو الأسرة.

الآن نفهم لماذا لخص فيلاديمير لوسكي قول السيد المسيح أن الحياة الأبدية هى أن نعرف الثالوث القدوس فيما معناه، «إما الثالوث أو.. لا شئ!!»



مصادر العقيدة الأرثوذكسية

يظن خطأ بعض اللاهوتيين الغربيين أن لولا بولس الرسول ما كانت المسيحية!! إنهم يرون أن بلورة وتفسير رسالة وعمل وشخص السيد المسيح، أهم منه هو نفسه! وإن كان الإجتهاد البشري في التفسير يلعب دوراً هاماً – إذ يكلمنا الله من خلال البشر لا الفراغ – إلا أن العقيدة المسيحية هى إعلان الله بكلمته وروحه عن ذاته وليس إطلاقاً اختراعاً بشرياً. فالتشابه الظاهر بين بعض المعتقدات الفرعونية واليونانية والمسيحية يختلف جذرياً إن أمعنا فيه النظر. فشتان الفارق بين آلهة بابل التي صنعت الإنسان لتستعبده لخدمتها وبين إعلان الله لنا في إبنه الذي وهبنا حياته فداء عن حياتنا. إن التشابه الظاهر بين أسلوب قصة الخلق في سفر التكوين ومثيلاتها في أساطير حضارات بين النهرين يرجع إلى أن الله عندما أوحى للكاتب كان عليه (الكاتب) أن يستعمل أسلوب عصره.

يقول الأب چورچ خضر مطران جبل لبنان الأرثوذكسي (كتاب كيف نفهم اليوم قصة آدم وحواء – منشورات النور ١٩٩٠) أن أسلوب الكتابة هو الوعاء الخزفي الذي يحتوي الكنز المعلن لنا من الله وليس الكنز نفسه. لذا يجب أن ندرس ونفصل بين هذا وذاك. فإن رأينا أوعية خزفية متشابهة لا يسوغ منطقياً أن نساوي بين محتوياتها.

والله أعلن عن نفسه بالآباء والأنبياء قديماً ثم في إبنه المتجسد. وبعد صعود المسيح جسدياً ظل روح الله القدوس يلهم آباءا وأنبياء لكتابة العهد الجديد وتفسيره لقيادة الكنيسة خلال الزمن.

[١] الكتاب المقدس:

وهو مجموع الكتب القانونية التي وافقت الكنيسة على قبولها - وكان أثناسيوس الرسولي أحد الذين شاركوا في هذا العمل. وهو كله، حسب اعلان الروح لبولس الرسول وتأكيد شهادة التاريخ والخبرة الحية، كله موحى به من الله. إلا أن هذا **الوحي كما قلت لم يكن بالإملاء بل قدم لنا بإسلوب كُتَّابه (الوعاء الخزفي) والروح لم يلغ شخصية الكاتب ولا أثر حضارته المعاصرة**، كما قال د. موريس تاوضروس - أستاذ اللاهوت الكتابي في كلية اللاهوت القبطية (كتاب: الوحي والتقليد ص ٣٨).

ولذلك يحتاج الكتاب لتفسير لأنه كما قال بطرس الرسول فيه أمور عسرة الفهم [٢ بط ٣: ١٦]. وأيضاً لأنه يحكي لنا الإيمان بصورة مجزأة مثل (Jigsaw Puzzle) ومن هنا نفهم الحاجة إلى التقليد الكنسي وخطورة استعمال الآية الواحدة. فآريوس قرأ «لأن أبي أعظم مني» [يو ١٤: ٢٨] فعلم بعدم مساواة الآب والابن. أما سابيليوس فقرأ: «أنا والآب واحد» [يو ١٧: ٢٢] فعلم أن الآب والإبن والروح القدس أقنوم وشخص واحد وليس من ثالوث!!

فإن كان هذا الحال مع كلمات السيد المسيح فكم وكم مع بقية الكتاب؟!

[٢] التقليد الكنسي:

وهذا لا يعني التراث الحضاري القومي لأي كنيسة مكانية مثل اللغة والموسيقى القبطية أو حتى بعض العادات التقوية مهما كانت جيدة، كما يظن البعض. ولكن التقليد الكنسي **هو مجموع الفكر العقيدي** (والطقس

المعبر عنه) الذي أوحى به الروح لتفسير اعلان الله المكتوب وغير المكتوب.

فالكتاب المقدس هو، حقيقة، جزء لا ينفصل عن هذا التقليد، حيث أن الإنجيل (البشارة المفرحة) كان يكرز به قبل كتابة البشائر والرسائل وأعمال الرسل وسفر الرؤيا. إلا أنه يتميز عنه في السلطان والعصمة.

لذلك لا تقبل الكنيسة (وهنا تعني الكنيسة الجامعة المسكونية الرسولية، أي من كل الشعوب والألسنة) كتابات وتفسيرات أو قوانين أي من الآباء أو الكنائس المكانية إن لم تكن متفقة مع الكتاب المقدس وروح التفسير الآبائي في عمومها. وكتابات الآباء - مع احترامنا الشديد وتقديرنا لها - ليست حقاً مطلقاً لتفاوت العنصر البشري فيها وأثر الآراء الشخصية والحضارية التي **لا يصح اعطاؤها صفة الإطلاق.**

فالكنيسة الأرثوذكسية لا تعصم أي إنسان من الخطأ، ولكن تؤمن بأن الروح القدس يرشد الكنيسة في شموليتها بمرور الزمن للحق بالرغم من ضعفات البشر ونقائص إدراكهم كما علم المتنيح الأنبا بيمين - أسقف ملوي.

فالعقيدة في كمالها يمكن تشبيهها بصورة كبيرة جداً لشخص الابن وتدبير الله (علاقة الله والإنسان والكون). وهذه الصورة قسمت لآلاف بل ملايين الأجزاء مع التفاوت في الحجم وأهمية هذه الأجزاء. ووزعت هذه الأجزاء النورانية على أعضاء الكنيسة عبر العصور كل على قدر موهبته. **فبالرغم من أن العقيدة حق مطلق لا يقبل التغيير إلا أنها تزداد وضوحاً وحدّة** كلما جاء أحد الذين إئتمنهم الله على جزء من هذه الصورة وأضافها في مكانها بالأمانة والإلهام، بحسب إدراكه وخبرته وروح

عصره أيضاً. لذلك **فقد يخطئ أو يصيب وليس من معصوم من الخطأ**. فإن أصاب فطوباه فهو يدعى عظيماً في ملكوت الله لأنه علَّم وعمل وعلَّم بكل قدرته [مت ٥: ١٩] وإن أخطأ يأتي آخر وبإرشاد الله يصحح ولو بعد حين. وهذا العمل – المرتشد بروح الله – لا ينتهي، بل تتغير طبيعته بالمجئ الثاني.

فرحلة التقليد الكنسي هى إذن اكتشاف سر علاقة «الله والإنسان والكون» المكثف في شخص المسيح: «عظيم هو سر التقوى (الكمال المطلق) الله ظهر في الجسد» [١تى ٣: ١٦]. هذه الرحلة هى سعياً واجتهاداً من الإنسان وحباً وإلهاماً من الله حتى نصل إلى «ملء قامة المسيح» [أف ٤: ١٣] في مجموعنا وليس كأفراد. ولعل هذا هو اليوم والساعة التي تكتمل فيها العروس. وحينئذ يظهر الرب نفسه بكامل مجده وتمام وضوح رؤيته في الزمن (المجئ الثاني) فينتهي الزمن في الأبدية. وهناك تستمر الرؤية والإلهام وضوحاً. أليست الحياة الأبدية هى نفسها معرفة الآب والإبن بالروح القدس [يو ١٧]؟

فالإبن المتجسد، هو وحده (الوحيد الجنس) الذي يحمل كمال وحدة الخالق بالخليقة وحافظها وواهبها لنا للأبد في زيجة لا تنفصل لكن بلا **إختلاط** ولا **امتزاج** ولا تغيير.

هذا هو مضمون الإيمان المسيحي. فالمسيحية ليست مجموعة تعاليم عن ممنوعات ومسموحات، ولا هى فتاوى ولا طقوس شكلية ولا ألوان ولا ملابس وحوار عقلي.. أبداً.. بل هى صيرورتنا «آلهة» بالنعمة والتبني وشركتنا مع الثالوث القدوس وهذا كله من فيض حبه الأزلي الكائن بين أقانيمه، وقد سكبه سكيباً في بشرية إبنه التي هى نحن (أعضاء المسيح من لحمه وعظامه) التي أعدَّها لسكناه ولوحدته معنا لأبد الآبدين. آمين.